

الاستقامة والصوفية



د . هدى عبد الحميد زكى محمد (*)

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وبعد:

قال الله عز وجل: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (١).

الاستقامة كلمة جامعة تعنى الدين كله، ومن ثم تتعلق بكل ما يخص الإنسان فى حياته، من الأقوال، والأفعال، والنيات، والأحوال؛ تخص القلب، والقلب، والعقل، والجوارح مع الروح .

ولذلك فهى أساسية فى الحياة والآخرة .

(*) رئيس قسم العقيدة والفلسفة (بنات أسيوط) جامعة الأزهر.

(١) سورة الأنعام: آية ١٥٣ .

سئل الصديق رضي الله عنه عن الاستقامة، فجمعها في قوله: (أن لا تشرك بالله شيئاً) .

وقال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعالب) .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: (استقاموا أخلصوا العمل لله) (١) .

في الواقع هو طريق الحق البين، الواضح: فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها، فعند استدلال العقل بديهية لا خلاف فيها .

ولذلك فإن الإعتدال على الحق، هو إقامة كل شيء على طبيعته، ميزان يزن كل شيء صحيحاً، وطبيعياً .

قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقال الله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (٣) .

فالله سبحانه وتعالى سوى النفس، وعرفها فجورها، وتقواها، كذلك فإن بإرادتها التقوى، أو أعوذ بالله تعالى الضلال .

وبما أن الإنسان من طبيعته النسيان، وأنه ليس بمعصوم من الخطأ إلا الأنبياء والرسول؛ لذلك فإن الاستغفار، والدعاء لله تعالى بطلب الهداية من أهم أركان العبادة، قال الله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (٤) .

(١) مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية: ط دار الحديث: ج ٢: ص ١٠٨، ١٠٩ .

(٢) سورة الروم: آية ٣٠ .

(٣) سورة الشمس: ٧: ١٠ .

(٤) سورة الفاتحة: آية ٦، ٧ .

وقال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ (١).

وعلى ذلك فإن أهم أركان الاستقامة، وأسسها: إرادة الاستقامة الخالصة لوجه الله تعالى، والصدق والإخلاص في تطبيق الشرع الحكيم فيها.

ومن المؤلم والمحزن في هذا العصر ما نراه في المسلمين من إفراط وتفریط، في الفكر والسلوك، فقد خيم الجهل عليهم، واستولت عليهم ثيارات فكرية فاسدة، فطمست فطرة الله تعالى فيهم، وقست قلوبهم وغيمت بالضلال، بين تسبب وانفلات، وبين تعصب مريض (على الأكثر)، باطل يحارب باطلاً.

وذلك كله لبعده الانتماء إلى حقيقة الاستقامة، في سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

ومن ثم فإن الجدير بالذكر: أن كلا الإفراط والتفریط، يرجعان إلى عمل النفس الأمارة بالسوء، فكلاهما لا يعملان لله سبحانه وتعالى.

حيث إن إهمال الأمر يؤدي إلى التشديد فيه، والمغلاة.

كذلك التشدد والمغلاة من أهم عواقبهما: الانفلات عن الأمر وتركه.

كما أن المغلاة، والتشديد في الأمر ترك لجوهره وحقيقته، وجهل لغايته.

ومما يجب أن أشير إليه فساد السلوك بين إفراط، وتفریط يؤديان إلى فساد كل شيء يخص الإنسان على الأرض وما تظله من سماء، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢).

ومن ثم فما أخرجنا إلى إظهار روح الاستقامة، وخير الحديث وأوضحه في إظهار روح الإخلاص، والصدق فيها هو كلام الصوفية الذين استقاموا على صراط

(١) سورة فصلت آية: ٦.

(٢) سورة الروم: آية ٤١.

الشريعة، وصدقوا وأخلصوا في قربهم من الله عز وجل .
حيث عرفوا مفهومها الصحيح، ومنبعها، والركن الأساسي فيها، وذلك في
عمل القلب، وفحصه، ومحاسبة النفس، وتربية الإرادة .
(كما سيتضح)، وثمرة كل ذلك في ترفيهم مقامات اليقين، في خالص
العبودية الصحيحة لله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ
الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ﴾ (١) .

وعلى ذلك اخترت الكتابة في هذا الموضوع لأهميته في حياتنا، حيث إننا في
حاجة المضطرين إلى وقفة جادة مع أنفسنا، ومحاسبتها؛ لتطبيق روح الاستقامة
من القانون الإلهي وشريعته للإنسان .

فشملت خطة البحث على المقدمة وثلاثة فصول رئيسية .

المقدمة: فيها شرح أهمية هذا البحث، وسبب اختياره، وخطة البحث .

الفصل الأول: مفهوم الاستقامة . وأركانها .

الفصل الثاني: كيفية الاستقامة ودرجاتها .

الفصل الثالث: الاستقامة بين الفطرة ... والنفس المطمئنة .

الفصل الرابع: الاستقامة والسعادة .

الفصل الخامس: المستقيم ومقام العبودية .

الخاتمة: وفيها تناولت أهمية الأسس في المنهج الصوفي؛ لكي تستقيم حياتنا

ونتجنب أسباب الجنوح، والإفراط، والتفريط في الدين .

والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (١).

الفصل الأول

مفهوم الاستقامة وأركانها

من الهام جداً أن أتناول مفهوم الاستقامة اللغوي والإصطلاحي؛ لكي يتبين طريقها الشرعي الصحيح في الكتاب والسنة: يوضح ذلك التالي:

أولاً: مفهوم الاستقامة:

"استقام" الشيء: اعتدل، واستوى .

و"قام" قومًا، وقيامًا، وقومةً: انتصب واقفاً .

والأمر: اعتدل . والحق: ظهر، واستقر .

و"وقوم" المعوج: عدله، وأزال عوجه .

"القويم" المعتدل .

"والقيوم" من أسماء الله الحسنی (٢) .

وإن العدل يرجع إلى الاستقامة، "فعدّل" الشيء أقامه، وسواه .

وعدالة: استقام .

والشيء عدلاً: أقامه وسواه .

(اعتدل): توسط بين حالين في كم، وكيف، أو تناسب (٣) .

(١) آل عمران: ٨ .

(٢) المعجم الوجيز: ط خاصة بوزارة التربية والتعليم سنة ٢٠٠٢ (بتصرف) .

(٣) المرجع السابق: ص ٤٠٩ .

٢ - الاستقامة اصطلاحاً :

هي كما قال الامام الجرجاني :

كون الخط بحيث تنطبق أجزاؤه المفروضة، بعضها على بعض، على جميع الأوضاع .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه خط خطأ، ثم قال : هذا سبيل الرشد، ثم خط عن يمينه، وعن شماله خطوطاً، ثم قال ﷺ : هذه سبل على كل سبيل، منها شيطان يدعو إليه؛ ثم تلا هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾^(١).

وفي اصطلاح أهل الحقيقة :

هي الوفاء بالعهود كلها، وملازمة الصراط المستقيم، برعاية حد التوسط في كل الأمور من الطعام، والشراب، واللباس، وفي كل أمر ديني، ودنيوي .
فذلك هو الصراط المستقيم، كالصراط المستقيم في الآخرة^(٢).

وقيل عن تعريف الاستقامة في تفسير القرطبي :

هي الاستمرار في جهة واحدة، من غير أخذ في جهة اليمين والشمال^(٣).
وقيل أيضاً في تفسير الألوسي :

الاستقامة كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل، وسائر الأخلاق^(٤).
والاستقامة المداومة، وهي ضد الاعوجاج، وهي مرور العبد في طريق العبودية، بإرشاد الشرع، والعقل .

(١) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .

تابع تفسير الفخر الرازي : ط : دار الفكر : ج ١٤ ، ص ٣ ، ٤ .

(٢) التعريفات : الجرجاني : ط الحلبي : سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م : ص ١٤ (بتصرف) .

(٣) تفسير الجامع لأحكام القرآن : ط : دار المعارف : ص ٩ : ص ٦ .

(٤) تفسير روح المعاني : ط : دار المعارف : ج ١٢ : ص ٣٦ .

والاستقامة فى اصطلاح الصوفية، على ثلاث مدارج:

أولها: التقويم: وهو تأديب النفس .

ثانيها: الإقامة، وهى تهذيب القلوب .

ثالثهما: الاستقامة، وهى تقريب الأسرار^(١) .

والاستقامة فى الرسالة القشيرية:

منزلة بها كمال السلوك، إذ هى شرط فى أحكامه، وذلك بمعنى حبس النفس

عن مرادتها، والإقبال على أوامر الله (تعالى)، والرضا بموارد القضاء عليه^(٢) .

وفى درة الأسرار جاء من مفهوم الصوفية لها:

بقاء المأمور على أمر حسب المراد

وحقيقتها: لزوم الوسط، الذى تصفوفيه القرب غالباً

وغايتها: رسوخ القدم على الصراط الذى ينتهى إلى الحق^(٣) .

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن العدالة اصطلاحاً ترجع إلى مفهوم الاستقامة

الإصطلاحى (كما سبق فى مفهومهما لغة)، إذ هى:

الاستقامة على طريق الحق، بالإجتناى عما هو محظور دينه .

فإن العدل: عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفى الإفراط والتفريط^(٤) .

كذلك فإن العدل: حالة للنفس، وقوى بها تسوس الغضب والشهوة^(٥) .

حيث إنهما يسببان للنفس الكثير من الضعف .

(١) نفس المرجع، والصفحة (بتصرف) .

(٢) الرسالة القشيرية: الإمام القشيري: الحلبي: ص ١٦١ .

(٣) درة الأسرار: ابن الصباغ: ط الحلبي: ص ٤٨ .

(٤) التعريفات: ص ١٢٨ (بتصرف) .

(٥) إحياء علوم الدين: الإمام الغزالي: ط دار الحديث: ج ٣: ص ٥٣ .

٣ - الاستقامة، الاعتدال، الوسطية:

موجز ما تقدم أن الاستقامة كما تدل على العدل تدل على الوسطية، فلا يمكن أن يتم العدل بين الناس إلا باعتدالهم على الاستقامة، كما شرعها الله (تعالى) .
فإن الاعتدال هو إقامة العدل، والموازنة، والقسط، والقصد، والصدق والقوامة.....

واعتدل الإنسان: أى سلك مسلكاً وسطاً، وقصد الطريق المستقيم، لا مغالاة فيه، ولا تقصير.

والوسط فى الدين:

أن يتأسى برسول الله ﷺ، بعدم الغلو، والتفريط فى الدين .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ (١).

وقال الله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ (٢).

وقال الله تعالى: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ (٣).

وقال الله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٤).

ومن الاستقامة: القوامة، فإذا أريد قيام الشيء وجب عدله، أى إقامته على وجه الاستقامة، دون عوج أو التواء .

فإذا استقام فقد أصبح سويًا، واعتدل إلى الهدف، وكان موصلًا إلى الغاية والقويم: المعتدل، والأمة: ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ (٥).

(١) سورة النحل آية: ٩٠ .

(٢) سورة الأنعام آية: ١١٥ .

(٣) سورة الشورى آية: ١٥ .

(٤) سورة النحل آية: ٧٦ .

(٥) سورة البينة آية: ٥ .

و قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١).

على ذلك فإن الاعتدال على الاستقامة : الوسطية ، التي بين الإفراط والتفريط ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (٢).

وهو ضد الجنوح والظلم ، شريعة الله تعالى للإنسان في إقامة كل الأشياء معتدلة ، وقائماً ، ومتضمنة الأمن ، والسلامة ، والصحة ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (٣).

ثانياً : أركان الاستقامة :

الركن الأول : النية ، وفحص القلب :

إن الأساس الأول في الاستقامة صدق النية ، وعزم القلب عليها ، ولذلك فإن فحص القلب ، وتطهيره من المخالفة هو أهم ركن ، في جهاد النفس عند الصوفية . فإذا كانت النية خالصة لوجه الله تعالى لا شريك له من أهواء النفس ، كان العمل أيضاً خالصاً ، وصادقاً لوجهه تعالى .

فإن الصوفي الصادق ، لا يعمل العمل إلا ويجدد خلاص النية ، لله تعالى فيه . بل ويفحص النية ، وفي كل الأعمال ، حيث إن الشيطان والنفس لهما من المداخل الكثيرة الخفية ؛ لذلك فهو دائم المحاسبة ، ومراجعة فحص القلب ، مع ذكر الكثير بما يحبه الله تعالى ، ورسوله ﷺ .

قال ﷺ : (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) (٤) .

(١) سورة الملك آية : ٢٢ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٣) سورة الفرقان آية : ٦٧ .

(٤) الحديث : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير .

كما قال ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى الحديث) (١) .

ولذلك قال الإمام أبو الحسن الشاذلي (٢) :
 " إن للنية محلاً، ووقتاً، وكيفية، ومعنى، فسأل الله تعالى الصفاء
 لحلاتها، والتوفيق في أوقاتها، والعصمة في كیفياتها، والتحقيق لمعانيها .
 ونسأل الله تعالى صحة العقد، وحسن القصد، وإرادة لوجه الله تعالى وتعظيماً
 لحق الربوبية، وإلزام النفس وصف العبودية .
 فمحل النية القلب، ووقتها عند افتتاح الأعمال، وكيفيتها ارتباط القلب مع
 الجوارح " (٣) .

وعلى ذلك فإن الأسس في عمل القلب :

(١) حسن القصد :

إن فحص القصد في القلب، يجدد نية العمل، ويكشف حقيقة النفس في
 التوجه إليه، ومن ثم يتلافى به كل تفريط وإفراط .
 وذلك لا يكون إلا بالعلم الصحيح بالكتاب؛ والسنة، على وجه الخصوص
 التشدد في الدين، والتعصب لا يتبين لدى السالك إلا بدراستهما، مع السيرة
 العطرة لرسول الله ﷺ وصحابته .

١) الحديث أخرجه البخاري في باب (كيف بدأ الوحي) ١ / ٥ ، وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة ٣ / ١٥ .
 ٢) الإمام أبو الحسن الشاذلي : هو على بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي، كان شيخاً عارفاً بالله تعالى، نزيل
 الاسكندرية، من شاذلة قرية من افريقية؛ كان كبير المقدار، عالي المنار، صاحب الشيخ نجم الدين الأصفهاني
 وابن مشيش، والكثير من أئمة عصره، توفي في طريقه للحج بصحراء عيذاب، ودفن هناك في ذى القعدة
 سنة ست وخمسين وستمائة رضى الله عنه وأرضاه (تابع الطبقات الكبرى الإمام الشعراني، ط المكتبة
 التوفيقية : ج ٢ : ص ٤) .

٣) (المفاخر العلية : ابن عياد : ط صبيح : ص ٥٨ .

(٢) حسن التوكل والمشیئة:

التوكل هو عمل القلب، فكما أن حسن قصد القلب من الإيمان والمعرفة كذلك حسن التوكل والمشیئة، وإن أساس التوكل العمل، والأخذ بالأسباب حيث إنه القوة الدافعة إلى حمل الأمانة، والطاقة الكامنة في العمل الخالص لوجه الله تعالى، ومن ثم أجمع النهج الصحيح للصوفية على كل خير، وصلاح في عمل الأسباب، لوجه الله تعالى، ولذلك قيل من نفاها فتوكله مدخول^(١).

(٣) قوة العزم:

إن صحة قصد القلب لا تكفى في دفع النفس على الاستقامة الشرعية فإن قوة العزم هى جمع الإرادة فى السلوك الصحيح، ومما يجدر الإشارة به فى هذا المقام أن أخطأ الكثير من المريدين من ذلك؛ فقد ينوى المريد خيراً، ولا يفعله، بل قد يتردد فيه، ويفعل نقيضه .

ومن ثم يجب قوة العزم مع حسن القصد، كل ذلك يتم بيقين المعرفة بالله تعالى، وحسن التوكل عليه (سبحانه وتعالى) .

وعلى ذلك كما جاء فى "المعرفة عند الحكيم الترمذى":

"المعول عليه أعمال القلب، التى يجب ألا تتخلف عن سلوك الجوارح، فعمل الجارحة دون عمل القلب ضرب من الباطل"^(٢).

وذلك ... (كما سبق) إن من عيوب القلب حب المنزلة، والخصوصية فى الطاعات وعلى ذلك فإن للنية صورتان:

الأولى: توجه القلب بحسن التيقظ .

(١) المعرفة عند الحكيم الترمذى: د / عبد المحسن الحسينى: ط دار الكتاب العربى: ص ٤١ .

(٢) تابع ذلك فى مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية: ١٢٣ .

الصورة الثانية: الإخلاص في العمل، إبتغاء ما عند الله تعالى، وإرادة وجه الله تعالى^(١).

ويشرح الإمام أبو الحسن الشاذلي كيفية أن ينوى المريد لله عز وجل، فقال: "إن حسن النية فيما بينك، وبين الله بتوجه القلب بالتعظيم لله، والتعظيم لأمر الله (سبحانه وتعالى)، والتعظيم لما به أمر الله عز وجل"^(٢).

الركن الثاني: الإرادة:

إن جمع الإرادة مع صدق العزم على الاستقامة لهام جداً، في طريق الصوفي الصادق، وإن الإرادة الصحيحة لا تأتي إلا إذا كان عزم النفس قوياً صحيحاً.

ولذلك (كما سبق) في تعريف الاستقامة: أنها نهوض القلب في طلب الحق باستمرار، بنفس القوة، والطاقة الإيمانية.

فبعد صدق النية في الاستقامة لوجه الله تعالى، نهوض القلب بنور المعرفة الصحيحة.

ومن ثم فإن تربية الإرادة من أصول الصوفية في مقامات اليقين.

وتعنى تطهير الأعمال من الأهوال، التي مصدرها عيوب القلب.

قال الإمام المحاسبي :

"إن الدنيا منها ظاهر، وباطن، ومنها عرض، ومنها جسم، ولها أول ولها آخر، ولها شاهد، ولها غائب فالباطن منها: اتباع الهوى الذي بطن في النفوس واتباعته القلوب مثل: الكبر، والغل، والحسد، والرياء، وسوء الظن، واعتقاد سوء الضمير، والمداهنة، وحب المحمدة، وحب جمع المال، والتكاثر والتفاخر"^(٣).

(١) المفاخر العلية: ص ٨٦ (بتصرف) .

(٢) المرجع السابق: ص ٨٦ .

(٣) القصد والرجوع إلى الله: الإمام عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي : ط دار الكتب العلمية (بيروت لبنان): الطبعة الأولى سنة (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م): ص ٢٤٨، ٢٤٩ .

فالإرادة هو القوة: التي تتوجه إلى العمل، فإذا كانت لله تعالى خالصة؛ كان الإنسان صالحاً، ومطمئناً.

أما إذا تدخلت النفس فيها لحب المنزلة، والخصوصية، أو اتباع الهوى انفصل القلب عن القالب في النيات والإرادات، فالعمل في ناحية، والقلب في ناحية أخرى، من أهواء النفس، والخواطر الشيطانية المتنوعة، وحينئذ يكون هذا المريد إما على تفريط وانفلات من الدين، وإما على مغالاة وتشدد، ومن الجدير بالذكر أن الإنسان المنقسم بكثير من الإرادات، والأهواء المختلفة فاقد الراحة والطمأنينة والسكينة في أعمال، حيث إنه قد اعتمد ووثق في أسباب فانية لا تملك شيئاً.

ولذلك من وصف حاله أنه دائماً على توتر وقلق، وشك وظن، وضعف، وحيرة، وتسرع، كما أنه ضعيف التعقل، ولا يحكم إنفعالاته وما إلى ذلك معروف ومشهور في الكثير من الناس .

وعلى ذلك من الجدير بالذكر:

أن ليس كل الأعمال من المريدين يعد إرادة لله تعالى خالصة، إذ لم يفحصوا القلب، ويحاسبوا النفس على الصدق والإخلاص فيها .

فربما ما ينقص العمل الإخلاص والصدق، فتضعف الإرادة لله تعالى، من خبث النفس، والخواطر الشيطانية فيه كما سبق .

الركن الثالث: الإخلاص:

إن الإخلاص ركن أساسي في عمل المسلم الصادق، ينبع أساساً من القلب. ولأهميته في حياة المسلمين أوجب الله تعالى الاستغفار، والدعاء الذي هو مخ العبادة، قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، حيث إنه قد يختلس النفس الكثير من الخواطر الشيطانية.

لقد عرف الإمام ابن عطاء الله السكندري الإخلاص قائلاً:

"كل شيء يتصور أن يشوبه شيء، فإذا صفى عن شوبه سمى خالصاً.

ويسمى الفعل المصفى إخلاصاً.....

كما أن الإلحاد هو الميل عن الحق....." (١).

وعلى ذلك فالإخلاص هو صدق الوجدانية لله تعالى، والشرك الخفى فى النفوس من شوب الإخلاص لله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ (٢).

ومن ثم فإن النهج الصوفى من أسسه صدق الإخلاص لله تعالى، وإذا خالف الصوفى ذلك، صار منتسباً إلى الصوفية، والواقع أننا نرى كثيراً منهم فى تفريط عن طريق الاستقامة الشرعية.

قال الإمام ابن عطاء الله فى حكمه عن الإخلاص:

(الأعمال صورة قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها) (٣).

كان من شرح الإمام أحمد بن عجيبة عليها: قوله:

"الأعمال كلها أشباح وأجساد، وأرواحها وجود الإخلاص فيها. فكما أن لا قيام للأشباح إلا بالأرواح، وإلا كانت ميتة ساقطة، كذلك لا قيام للأعمال البدنية والقلبية إلا بوجود الإخلاص فيها.

وإلا كانت صور قائمة، وأشباحاً خاوية لا عبرة لها" (٤).

وعلى ذلك والواقع أن الإخلاص هو الحصن والحفظ، للإنسان من غواية

(١) مفتاح الفلاح: ابن عطاء الله: ط الحلبي: ص ١٨.

(٢) البينة: ٥.

(٣) تبويب الحكم العطائية: العارف بالله على بن حسام الدين: ط الحلبي: ص ٩.

(٤) إيقاظ الهمم فى شرح الحكم: ط السعادة: ص ٢٣٤.

الشیطان وجنوده، وفى نفس الوقت يعطى للنفس قوة تحفظها من الضعف، والتردد فى طريق الاستقامة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (١).

كذلك فقد اشترطت الصوفية (كما سبق) فحص القلب، ومحاسبة النفس ووجود الشیخ الصالح العالم العارف بالله تعالى، وهو القدوة الحسنة، فى استقامته وإخلاصه، یداوى علل مریده، ويرشدہم إلى ما یصلح حالہم، ویقویہم على تقوى الله تعالى.

ومما یجب أن أشیر إلیہ أننا قد ابتلینا بمشاىخ فى طرق صوفیة كثيرة، أخذت المشیخة لحاجة فى نفوسہم، كذلك فإنہم لیسوا على قدم العلم، والمعرفة لله تعالى وقد تتلمذ على یدیہم من هم أسوأ، حیث اتخذوا من جلبات الحق وسیلة لتحقيق رغباتہم الباطلة.

فازدادوا سوءاً ودخلوا فى أوہام، وخرافات، من أحوال شیطانیة فاسدة سيطرت علیہم، فحسبوا أنهم بکرامة وبکشف، فازدادوا انحرافاً، ومیلأ إلى الإلحاد (نعوذ بالله من ذلك).

الركن الرابع: الصدق :

إن الصدق الركن الذى یşمل الإنسان، من القلب إلى القالب، لا یختص بشيء عن الآخر.

ومن ثم فإن الصدق عند الصوفیة على ثلاث أسس هامة :

الأول: صدق النية والقصد (كما سبق).

الثانى: صدق العلم والمعرفة، من مصدرهما الصحيح.

(١) سورة الحشر آية: ٤٠.

الثالث : صدق العمل، ومواصلته في الإتيان .

وإن صدق علم التصوف يرجع من تطبيق هذا المقام العظيم، على أعمال وأفعال كل من رغب القرب من الله تعالى :

لأن صفو النفس، واستقامتها من مطابقة ظاهرها بباطنها، وباطنها بظاهرها : أى النية الحسنة واليقين الصادق، بالعمل الصالح الخالص لوجه الله تعالى .

كذلك مطابقة العمل الصالح بالنية الحسنة، وبقينها الصادق .

قال الإمام أحمد بن عجيبة عن هذا المقام العظيم :

"الصدق هو إسقاط حظوظ النفس في الواجهة إلى الله تعالى، تعويلاً على ثلج

اليقين .

أو استواء الظاهر والباطن في الأقوال والأحوال

وحاصله : تصفية الباطن من الإلتفات إلى الغير بالكلية " (١) .

ثم رأى مفرقاً بين الصدق والإخلاص :

"أن الفرق بين الصدق والإخلاص : أن الإخلاص ينفي الشرك الجلى والخفى .

والصدق ينفي النفاق، والمداينة بالكلية .

فمثال الصدق مع الإخلاص، كالتسحرة للذهب (أى التصفية)، فهو ينفي

عنه عوارض النفاق، ويصفيه من كذورة الأوهام؛ وذلك أن صاحب الإخلاص لا

يخلو من مداينة النفس، ومسامحة الهوى بخلاف صاحب الصدق، فإنه يذهب

المداينات، ويرفع المسامحات، إذ لا يشم رائحة الصدق من مداينة نفسه، أو غيره

فيما دق، أو جل" (٢) .

(١) موج التشوف إلى حقائق التصوف : أحمد بن عجيبة الحسيني : ط الحلبي ص ١١ .

(٢) المرجع السابق : ص ١١ .

ثم رأى أن علامة الصادق :

استواء السر، والعلانية، فلا يبالي صاحب الصدق، بكشف ما يكره اطلاع الناس عليه، ولا يستحي من ظهوره لغيره، اكتفاؤه بيقينه بعلم الله تعالى به .

فصدق العامة : تصفية الأعمال من طلب الأعواص .

وصدق الخاصة : تصفية الأحوال من قصد غير الله تعالى .

وصدق خاصة الخاصة : تصفية مشرب التوحيد، من الالتفات إلى ما سوى الله تعالى^(١).

وإن صدق العامة : صاحبه يسمى الصادق .

والثاني والثالث : يسمى الصديق، بمختلف درجات الولاية فيه .

والقدوة الصالحة الأولى في هذا المقام هو الصديق "سيدنا أبو بكر" صاحب رسول الله ﷺ .

وعلى ذلك فإن الصدق يتوقف على مدى اليقين، الذى يسكن قلب المريد .
فربما يكون علماً فقط، وربما يكون عقيدة ويقين، مع الأعمال الصالحة الصادقة لوجه الله تعالى .

ومن ثم فإن الصدق يعمل على تهذيب وصلاح النفس، فى الاستقامة على الكتاب والسنة .

لكن يلزمه الإرادة القوية التى تدمغ باطل النفس، وتزهرقه .

ولذلك فإن صدق العلم بالعلم الصحيح، يدل على صدق القصد، والنية وأنهما معاً يدلان على صدق السر والجهر، بأنهما على سبيل وروح الاستقامة .

ومن ثمرتهما تصفية النفس، ونفى كل مخاوفها، كما فى الصحيح عن

(١) المرجع والصفحة (بتصرف) .

عبد الله ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : (عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب ، حتى يكتب عند الله كذاباً)^(١).

فالصدق مفتاح كل خير؛ كما ان الكذب مفتاح كل شر .
ولهذا يقولون عن بعض المشايخ : إنه قال لبعض من استتابه من أصحابه (كما روى ابن تيمية) .

أنا لا أوصيك إلا بالصدق^(٢) .

وعلى ذلك فإن الاستقامة على الكتاب والسنة ، لا تكون إلا بالصدق .

فقدرة الاستقامة وصحيحها يكون الصدق في القلب والقالب ، ومن ثم قال الإمام أبو الحسن الشاذلي :

" ليس شيئاً أشد ولا أشقى في العمل بالطاعة ، والذكر والتلاوة ، من ضبط النفس ، وحضور القلب ، وفهم المعاني ، وإعطاء الحروف حقها ، مع إرادة وجه الله عز وجل ، وهو موضع الإخلاص ، والعزيمة على العمل بما به يرجى ، وهو موضع الصدق ، ونهوض السر عن الدنيا ، وعن كل شيء سوى الله ، وهو موضع النية " ^(٣) .

من الجدير بالذكر :

أن الصدق هو القوة ، والطاقة الغير محدودة ، حيث إن تحرى الصدق في الاستقامة مع الله تعالى ، في الأنفاس ، والأفعال يعطى لمريد الله تعالى ، قوة وطاقة

(١) صحيح البخارى : كتاب الآداب (٦٠٩٤) ، وفي صحيح مسلم : كتاب البر والصلة (٢٦٠٦) .

(٢) الاستقامة : ابن تيمية : ط دار الحديث : ص ٢٦٥ (بتصرف) .

(٣) المفاخر العلية : ابن عباد : ص ١١٩ .

وحب لله تعالى، ولرسوله ﷺ في كل حركاته، وسكناته، يعمل لرضا الله تعالى .
قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (١) .

الركن الخامس: تقوى الله تعالى :

إن خير الأسس، والأركان في عمل الإستقامة على كتاب الله تعالى، والسنة النبوية الشريفة هو تقوى الله تعالى، والعمل برضاه سبحانه .

ذلك على العلم الشرعى قبل وقوع الذنب، بجانب الإستدراك بالتوبة والاستغفار على ما وقع من تقصير، مع ضبط النفس، وتطهير القلب مما طمس به من دنايا النفس .

ومن ثم فإن في التقوى الأمن والسلامة والعافية .

جاء في تعريف التقوى:

"حصر الهفوات النفسانية بضابط القوانين الشرعية .

وحقيقتها: رفع العقل على ميزان الشرع؛ لاعتبار النقص والزيادة

وغايتها: إخراج أضغان النفس، وردعها عن الدعاوى المكدرة لصفاء جوهر القربات" (٢) .

فالتقوى طريق يشمل حياة الإنسان، كما يشمل كل جارية منه .

وركنها الأساس القلب، ومن ثمراتها الهامة ضبط العقل، بإحكام الشرع .

ومن ثم يستضاء العقل بنور الشرع، ويتحصن بها من الإفراط والتفريط وعلى

ذلك يتبين:

(١) سورة محمد: آية ٢ .

(٢) درة الأسرار: ابن الصباغ: السعادة ص ٢٣٧ .

أن التقوى ليست فى العمل فقط، بل فى القصد والنية .
وأنها هامة جداً فى طريق المريد الصادق، فى كل المقامات اليقينية من التوبة
والورع، والزهد، والصبر، والحب، والعبودية .
كذلك مهمة جداً فى الأحوال الوهبية، التى تمر على السالك لها، فى ضبط
نفسه على شرع الله تعالى، ورضاه .

* * *

الفصل الثانى

كيفية الاستقامة ودرجاتها

إننا فى حاجة المضطرين لتطبيق روح الاستقامة الصحيحة، وإظهار الاعتدال،
والوسطية فى إصلاح، وصلاح المجتمعات، وذلك لا يكون أبداً إلا من الكتاب
والسنة الشريفة .

ومن المحزن والمؤلم أن واقع الأمة الإسلامية من سبىء إلى أسوأ، فى فساد الخلاق،
وكثرة الظلم، فقد جنح الفكر والسلوك فيها، بين تفريط وإفراط .
كلاهما يدعى الحق، ويحارب الآخر، وإن عوام الناس بين هذا وذاك فى ضلال
وتيهة .

كل ذلك بسبب إهمال وتفريط الحُكام، والمسئولين عن حاجة الناس، إلى الدين
الإسلامى، وأنه غريزة وفطرة لازمة للحياة السليمة، فلا تستوى الحياة إلا بتطبيقه،
وتنظيمه فى المجتمعات، ولكي يعم الأمن والسلامة بين الناس .

ومن الجدير بالذكر فنفس مستقيمة تدل على عقل راشد، وقلب سليم
وكلاهما من توازن بين حاجة الجسم، والنفس، والقلب، والعقل، فلا غلو فى
طلب الملذات، ولا جنوح للفكر .

حقيقة العمل بالاستقامة:

اتفق العلماء على أن الاستقامة تكون بالاتباع، لا بالابتداع، وإن كل جارحة في الإنسان عليها من الأعمال الواجبة .
يبين ذلك التالي :

لقد رأى الامام ابن قيم الجوزية أن ذلك يتم في :
الاجتهاد في الاقتصاد، لا عناديا رسم العلم، ولا متجاوزاً حد الإخلاص ولا مخالفاً نهج السنة، وذلك في ستة أمور:
١ - عملاً واجتهاداً فيه، وهو بذل المجهود .
٢ - اقتصاداً: وهو السلوك بين طرفي الإفراط، ولا يجور على النفوس ولا يضيع .

٣ - وقوفاً: مع ما يرسمه العلم، لا وقوفاً مع داعي الحال .
٤ - أفراد المعبود بالإرادة، وهو الإخلاص (كما سبق) .
٥ - وقوع الأعمال على الأمر، وهو متابعة السنة^(١) .
فقد وضع (رحمة الله تعالى) أن الخروج عن واحد منها يعد إما تفريطاً، وإما إفراطاً، وكلاهما على ضلال، وظلم .
قال بعض السلف الصالح:
"ما أمر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزعان: إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة، وهي الإفراط .

ولا يبالى بأيهما ظفر: زيادة أو نقصان"^(٢) .

(١) مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية: ج ٢: ص ١١٢ (بتصرف) .

(٢) المرجع السابق: ج ٢: ص ١١٣ .

لأن الشيطان الرجيم (كما قيل) يَشُم قلب العبد، ويختبره، فإن رأى فيه داعية للبدعة، وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنة: أخرجه عن الاعتصام بها .

وإن رأى فيه حرصاً على السنة، وشد طلب لها: لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، فأمره بالاجتهاد، والجور على النفس، ومجاوزة حد الاقتصاد فيها . قائلًا له: "إن هذا خير وطاعة، والزيادة والاجتهاد فيها أكمل" (١) .

وعلى ذلك يرى ابن قيم الجوزية أن كل خير في إجتهد، وإخلاص مقرون بالاتباع، كما قال بعض الصحابة: "اقتصاد في سبيل وسنة، خير من اجتهد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء (عليهم السلام) وسنتهم" (٢) .

ونجد أيضاً قول الإمام أحمد بن عجيبة: "استعمال العلم بأقوال الرسول ﷺ، وأفعاله، وأحواله، وأخلاقه من غير تعمق، ولا تأنق، ولا ميل مع أوهام الوسواس

والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق، في جميع الحالات . وهي في الأقوال بترك الغيبة، وفي الأفعال بترك البدعة، وفي الأحوال بعدم الخروج عن سنن الشريعة .

فاستقامة العامة: بموافقة السنة .

واستقامة الخاصة: بالتخلق بالأخلاق النبوية .

واستقامة خاصة الخاصة: بالتخلق بأخلاق الرحمن، مع الاستغراق في حضرة العيان" (٣) .

(١) المرجع السابق: ج ٢: ص ١١٢ .

(٢) المرجع السابق: ج ٤: ص ١١٣ .

(٣) موج التشوف إلى حقائق التصوف: ابن عجيبة: ص ١٠ .

كما قال أحمد بن زروق عن كيفية الاستقامة:

"من كمال التقوى وجود الاستقامة، وهى حمل النفس عن أخلاق القرآن والسنة، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (٢) (٣).

١ - رأى الغزالي فى طريقة تركية النفس:

ويشرح الإمام الغزالي الطريقة فى تركية النفس، فرأى:

أنها إن كانت مهذبة: فاحفظها .

وإن كانت مائلة: فقومها بالرد إلى جد الاعتدال، فإن المقصود من جلب الإعتدال سلب الطرفين، إذ الغرض تطهير النفس عن الصفات التى تلحقها بعوارض البدن؛ حتى لا تلتفت إليها بعد المفارقة، عاشقة ومتأسفة على فوتها، وممنونة بالإشتغال والتألم بها .

وقد أراد لذلك أن لا يكون الماء حاراً ولا بارداً؛ طلباً فيه الاعتدال، وكان الفاتر لا حاراً ولا بارداً فكذلك هذه الصفات (٤).

والأخلاق الحسنة، والسيئة قد فصلها الشرع، ويجمعها ما صنف فى آداب النبي ﷺ .

وقد شرح الاعتدال فرأى: أنك لو كنت تلتذ بالإسراف فى تفريق المال، فتعلم

(١) سورة الاعراف: ٩٩ .

(٢) سورة الفرقان: ٦٣ .

(٣) قواعد التصوف: أحمد بن زروق: ط الكليات الأزهرية: ص ٣٨ .

(٤) ميزان العمل: الإمام الغزالي: ط دار المعارف: ٢٦١: ٢٦٢ .

أن هذا أيضاً مذموم، وهو الذى يعبر عنه بالتبذير .

والحمود المعتدل، هو السخاء الواقع بين التحزق والتبذير، وهو ما تيسر عليك بذل ما يقتضى الشرع والعقل بذله، عن طوع ورغبة، وتيسر عليك إمساك ما يقتضى الشرع، والعقل إمساكه عن طوع ورغبة .

وكذا فى سائر الصفات^(١).

والأهم فى الأفعال أن تكون خالصة لله تعالى .

وقد رأى أن أمهات الفضائل أربعة هى :

١ - الحكمة : فضيلة القوة العقلية .

٢ - الشجاعة : فضيلة القوة الغضبية .

٣ - العفة : فضيلة القوة الشهوانية .

٤ - العدالة : عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب، فيها تتم جميع الأمور^(٢).

ويشرح الإمام الغزالى كيفية صدور هذه الفضائل من قواها، فيرى أن الحكمة نعى بها ما عظم الله تعالى فى قوله : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾^(٣) وكله منسوباً إلى القوة العقلية^(٤).

ويرى أن الحكمة فى كل شيء، فمثلاً : إن بذل المال فضيلة، وقد يصير رذيلة فى بعض الوقات، وفى حق بعض الأشخاص .

كما يرى أن الحكمة الخلقية حالة، وفضيلة للنفس العاقلة، بها تسوس القوة

الغضبية، والشهوانية .

١٤ (المرجع السابق : ص ٢٦٢ .

٢ (ميزان العمل : ص ٢٦٤ .

٣ (سورة البقرة : ٢٦٩ .

٤ (المرجع السابق : ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ (بتصرف) .

وتقدر حركاتها بالقدر الواجب، في الانقباض والانبساط، وهى العلم بصواب الأفعال .

وقد رأى أن الفضيلة تكتنفها رذيلتان :

هما : " الحب، والبله : هما طرفان إفراطها وتفريطها .

أما الحب : فهو طرف إفراطها، وهو حالة يكون بها الإنسان، ذا مكر وحيلة بإطلاق الغضبية، والشهوانية، يتحركان إلى المطلوب حركة زائدة على الواجب .

أما البله : هو طرف تفريطها، ونقصانها عن الاعتدال، وهى حالة للنفس، تقصر بالغضبية، والشهوانية عن القدر الواجب . ومنشؤه بطء الفهم، وقلة الإحاطة بصواب الأفعال .

أما الشجاعة :

هى فضيلة للقوة الغضبية لكونها قوية، ومع قوة الحمية منقادة للعقل، لتأدب بالشرع فى إقدامها وإحجامها .

وهى وسط بين رذيلتيها المطيفتان بها، وهما : التهور، والجبن .

فالتهور : لطرف الزيادة عن الاعتدال، ونهى الحالة التى بها يقدم الإنسان على الأمور المحظورة، التى يجب فى العقل الإحجام عنها وأما الجبن، فلطرف النقصان، وهى حالة بها تنقص حركة الغضبية عن القدر الواجب، فتصرف عن الإقدام، حيث يجب الإقدام" (١) .

قال الله تعالى : ﴿ أَشَدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رَحَمَاءَ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢) .

وعلى ذلك : " فلا الشدة فى كل مقام محمود، بل الحمود ما يوافق معيار العقل

والشرع .

(١) المرجع السابق : ص ٢٦٦، ٢٦٧ .

(٢) سورة الفتح : آية : ٢٩ .

فمن حصل له ذلك، فليحفظه بالمواظبة على أفعاله .

ومن لم يحصل له، فليتنظر: فإن كان طبعه مائلاً إلى النقصان، الذي هو الجبن، فليتعاط أفعال الشجعان متكلفاً، مواظباً عليه، حتى يصير له الاعتياد طبعاً وخلقاً، فيفيض منه أفعال الشجعان بعد ذلك طبعاً.

وإن كان مائلاً إلى طرف الزيادة، وهو التهور، فليشعر نفسه بعواقب الأمور، وليعظم أخطارها، وليتكلف الإحجام إلى الاعتدال أو ما يقرب منه^(١).

٢ - الحكمة من قراءة قوله تعالى: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

يشرح الإمام الغزالي الحكمة من قراءة المسلمين فاتحة لكتاب في كل ركعة، وصلاة؛ لاضطرارهم إلى هداية الله تعالى لهم، قال تعالى: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

حيث يرى أن المقصود من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾^(٢):

الاستمرار على الصراط المستقيم، وطلب الوسط بين هذه الأطراف شديد وهو أدق من الشعرة، وأحد من السيف، كما وصف من حال الصراط في الدار الآخرة. ومن استقام على الصراط في الدنيا، استقام على الصراط في الآخرة، إذ يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه.

فإن التصور الصحيح لإعتدال النفوس من أعقد الأمور، وأعصاها على الطالب ولو كلف ذلك في خلق واحد لطال العناء فيه، وقد كلفنا ذلك في جميع الأخلاق، مع خروجها عن الحصر، ولا مخلص عن هذه المحظورات، إلا بتوفيق الله ورحمته^(٣).

(١) المرجع السابق: ص ٢٦٧ .

(٢) سورة هود آية: ١١٢ .

(٣) المرجع السابق: ٢٦٨، ٢٦٩ (بتصرف) .

ومن ثم نجد أن المقصود من قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(١)، ليس في الواجبات الشرعية، والأسس الإسلامية المعروفة، لكن في مطابقة الأعمال القلبية بأفعال وأعمال القلب، وهو أن يكون المسلم قلباً، وقالباً مع الله تعالى، لا يفصل القلب عن القلب، ولا القلب عن القلب، عبادة خالصة لله تعالى، على الصدق في كل شيء في حياة الإنسان .

ولذلك نجد قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢).

ومن ثم نجد اختلاف رسول الله ﷺ عن الأنبياء والرسل، واختلاف الأنبياء والرسل عن كافة الناس، في حقيقة الإخلاص والصدق، وفي استواء القلب بالقلب، في الأنفاس، والنيات، والحركات، والإرادات وما إلى ذلك .
أما المسلم في كل زمان ومكان إلا الأنبياء والرسل من أحواله: النسيان ومن الجائز عليه الخطأ إذا مال إلى أهواء النفس .

فضلاً عن أنه في بعض أفعاله، وأعماله قد ينوى خيراً، ويعزم ويجزم عليه لكن ربما لا تفي جوارحه، أو قالبه مقدار عزمه وجزمه، فيضعف في فعله، أو يتردد في القدوم عليه .

ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾^(٣).

أما تعمد القلوب المخالفة، والإتيان بالمعاصي إما أن ذلك من الكفر، أو النفاق (أعوذ بالله من ذلك) .

(١) سورة التغابن: آية: ١٦ .

(٢) سورة هود آية: ١١٢ .

(٣) الأحزاب: ٥ .

ويكمل الإمام الغزالي كلامه بشرحه لفضيلة العفة، فيرى:

أما العفة: هي فضيلة القوة الشهوانية، وهي انقيادها على تيسر، وسهولة للقوة العقلية، حتى يكون انقباضها، وانبساطها بحسب إشارتها .

ويكتنفها رذيلتان: الشره، والخمود .

فالشره: هو إفراط الشهوة إلى المبالغة، في اللذات التي تستقبحها القوة العقلية.

وتنهي عنها .

والخمود: هو خمود الشهوة عن الإنبعاث، إلى ما يقتضى العقل نيله وتحصيله،

وهما مذمومان .

كما أن العفة التي هي الوسط محمودة .

وعلى الإنسان أن يراقب شهوته، والغالب عليها الإفراط لاسيما إلى مقتضى

الفرج والبطن، وإلى المال والرياسة، وحب الثناء .

والإفراط والتفريط في كل ذلك نقصان .

وإنما الكمال في الاعتدال .

ومعيار الاعتدال العقل والشرع، وذلك أن يعلم الغاية المطلوبة من خلق الشهوة،

والغضب، مثلاً بأن يعلم أن شهوة الغاية الطعام إنما خلقت لتبعث تناول الغذاء

ليبقى البدن حياً، والحواس سليمة، ليتوصل بالبدن إلى نيل العلوم، ودرك حقائق

الأمور، والتقوى على العبادة .

كذلك فإن شهوة الجماع خلقت لبقاء النوع محفوظاً، لا للعب والتمتع، وإن

تمتع ولعب، كان باعته عليه التآلف، والاستحالة، ويقتصر على حسن الصحة

ودوام النكاح .

ويقتصر من الأنكحة على القدر، الذي لا يعجزه عن القيام بحقوقه، ومن عرف

ذلك سهل الاقتصار^(١).

ويعنى الإمام بالاقتصار على زوجة واحدة، أو ما يستطيع القيام بحقوق الشرع وعدم الجور.

ولذلك رأى: أنه يجب عند ذلك لا يقيس نفسه، بصاحب الشرع ﷺ إذ كان لا يشغله كثرة الأنكحة من ذكر الله تعالى، ولا يلزمه طلب الدنيا لأجل الأزواج^(٢).

ومن الجدير بالذكر: نقض الإمام الغزالي كما قال: "من الحمقى العوام يتكايسون فى التصوف بآرائهم، ويزعمون أهذه الشهوات لم خلقت؟ إن كان اتباعاً مذموماً، ومهلكاً؟ ولم يعلموا أن تحت خلق الشهوتين، أعنى شهوة الفرج والبطن حكمتين عظيمتين:

إحدهما: إبقاء الشخص بالغذاء، والنوع بالحرق، فإنهما ضروريتان فى الوجود بحكم إجراء الله تعالى سنته، بمشيئة الله الأزلية، التى لا نجد لها تبديلاً ولا تحويلاً. الثانية: ترغيب الخلق فى السعادات الآخروية، فإنهم ما لم يحسوا بهذه اللذات والألام، لم يرغبوا فى الجنة، ولم يحذروا النار.

ولو وعدوا بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لما أثر ذلك بمفرده فى نفوسهم هذا حد العقبة"^(٣).

أما العدل: فهو حالة للقوى الثلاث، فى انتظامها على التناسب، بحسب الترتيب الواجب فى الاستعلاء، والانقياد، فليس هو جزء من الفضائل، بل هو عبارة عن جملة الفضائل.

(١) ميزان العمل: ٢٦٩، ٢٧٠ (بتصرف).

(٢) تابع المرجع السابق: ص ٢٧٠ (بتصرف).

(٣) المرجع السابق: ٢٧١، ٢٧٢.

فالعدل في أخلاق النفس، يتبعه لا محالة العدل في المعاملة، والسياسة، ويكون كالمترفع عنه .

ومعنى العدل الترتيب المستحب .

وأما في حقوق المعاملات .

وإما في أجزاء ما به قوام البلد .

والعدل في المعاملة: وسط يبين رذيلتي الغبن، والتغابن، وهو أن يأخذ ما له

أخذه، ويعطى ما له أن يعطى .

والغبن: أن يأخذ ما ليس له .

والتغابن: أن يعطى في المعاملة، ما ليس عليه حمد وأجر .

ولا يكتنف العدل رذيلتان، بل رذيلة الجور المقابلة له؛ إذ ليس بين الترتيب

وعدم الترتيب وسط^(١) .

درجات العمل بالاستقامة :

بعد قصد المريد، وعزمه لصحة الاستقامة، تتوالى عليه درجاتها: لقد وصف

ابن قيم الجوزية حال المريد في بداية جهاده، حيث قال :

"أن السالك يكون في أول سلوكه في أودية التفرقة، سائراً إلى روابي الجمع

فيستقيم في طريق سيره غاية الاستقامة؛ ليصل باستقامته إلى روابي الجمع .

فاستقامته برزخ بين تلك التفرقة، التي كان فيها، وبين الجمع الذي يؤمه

ويقصده .

وهذا بمنزلة تفرقة المقيم في البلد في أنواع التصرفات، فإذا عزم على السفر

وخرج وفارق البلد، واستمر على السير، كان طريق سفره: برزخاً بين البلد الذي

(١) ميزان العمل: ٢٧٢، ٢٧٣ (بتصرف) .

كان فيه، والبلد الذى يقصده ويؤمه" (١).

الدرجة الأولى: ذهاب عن العادات بصحبة العلم، والتعلق بأنفاس السالكين، مع صدق القصد .

وذلك لا يكون إلا بصحبة العلم الصحيح، فإنه النور الذى يعرف العبد مواقع ما ينبغى إثارة طلبه، وما ينبغى إثارة تركه (٢).

الدرجة الثانية:

تحرى العمل بالكتاب والسنة: فبعد تحقيق المريد بتطهير نفسه من أمراضها وعاداتها، وجب عليه أن يلتزم بالعمل على نهج الكتاب والسنة، حيث قد صار عزمه على الاستقامة عقيدة راسخة فى طريق الحق (جلّ وعلا) .

ومن ثم يسير المريد فى هذه المرحلة بين حالين: القبض والبسط، مما هو فيه من جهاد صادق مع نفسه .

وقد رأوا علماء الصوفية أن المريد يترقى من مقام العلم إلى مقام الكشف . ومن مقام رسوم الأعمال إلى مقام حقائقها، وأذواقها ومواجيدها، وأحوالها فيترقى من الإسلام إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى الإحسان" (٣). كل ذلك وهو على يقين، وطمأنينة فى تطويع نفسه على العمل والتقوى، والصلاح على صراط الكتاب، والسنة النبوية الشريفة .

ومما يجب أن أشير إليه: أن حال القبض يغلب وقت المريد، فى تلك المرحلة من البسط .

وعندما يغلبه الخوف من الله تعالى يكثر من الاستغفار، والذكر الكثير

(١) مدارج السالكين: ج ٢: ص ١١١ .

(٢) المرجع السابق: ج ٢: ص ٣٨٨ (بتصرف) .

(٣) المرجع السابق: ج ٢: ص ٣٨٩ (بتصرف) .

والتسبيح لله تعالى، فيبسطه الرجاء في الله تعالى .

الدرجة الثالثة: الحرص على الأدب في القول والعمل :

وهو ثلاث انواع :

١ - الأدب مع الله سبحانه وتعالى .

٢ - الأدب مع الرسول ﷺ .

٣ - الأدب مع الخلق .

قيل "الأدب في العمل علامة قبول العمل" (١) .

ومن ثم قيل "الأدب هو الدين كله" .

فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتطهير من الخبث من الأدب، حتى يقف بين يدي الله سبحانه تعالى طاهراً، ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه، قال الله تعالى: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (٢) .

ومعنى ذلك أن الأدب هو حب العمل لله ورسوله ﷺ، فإذا تأدب المرید مع الله تعالى، تأدب مع الرسول ﷺ في الانقياد لأمره، وتلقى خبره بالقبول والتصديق، دون تأويل يخرج عنه حقيقته، أو يحمله شبهه أو شكاً، أو يقدم عليه الآراء والاهواء، كذلك فإن من الأدب مع الرسول ﷺ أن لا ترفع الأصوات فوق صوته، فإنه سبب لحبوط الأعمال، فما الظن برفع الآراء، ونتائج الأفكار على سنته ﷺ وما جاء به!!

وإن صدق الأدب أيضاً يكون مع الخلق على اختلاف مراتبهم، وأحوالهم الصبر عليهم لله تعالى، وكظم الغيظ، والعفو، كل ذلك وغيره لله ولرسوله ﷺ وبنور

(١) مدارج السالكين: ج ٣: ص ٣٩٧ .

(٢) الأعراف: آية ٣١ . تابع المرجع السابق: ج ٣: ص ٤٠٠ (بتصرف) .

العلم بالكتاب والسنة؛ لذلك يفهم المريد من الله ما يجب عليه، على حسب الحال والمقال.

ومن ثم فإن كل أحوال المريد لها آداب، فللدخول أدب، والخروج أدب ولل سفر أدب، والإقامة أدب، والنوم أدب وذكر وغير ذلك من شئون الحياة.

ومن الجدير بالذكر قول ابن القيم الجوزية: أن أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه وقلة أذبه: عنوان شقاوته، فما استجلب خير الدنيا، والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب.

فانظر إلى الأدب مع الوالدين: كيف نجى صاحبه من حبس الغار، حين أطبقت عليهم الصخرة^(١).

الدرجة الرابعة:

الاستقامة بترك رؤية الاستقامة في النفس:

هي الغاية الأسمى في طريق مقامات اليقين عند الصوفية.

وهذا كما ورد عن أئمة الصوفية: لا يكون إلا بنسيان النفس لرؤيتها أنها مستقيمة، فإن ذلك من خفى سوء النفس، ونقصها، كذلك فإن الإيمان بالله تعالى الصادق لا يكون إلا بالفناء عن كل شيء إلا لله تعالى، والبقاء بالله تعالى بكل شيء، بما فيها النفس.

ولذلك فإن الحق في الاستقامة لا يبدوا مع بقاء النفس، في رؤيتها الأعمال الصالحة، فلا بد كما قال أعل الحقيقة من زول ظلمة النفس حتى ترى نور الحق.

وعلى ذلك قال أحد أئمة الصوفية كما ورد في الرسالة القشيرية: (أفضل

(١) حديث الثلاثة الذين أوامهم المبيت إلى غار فاصبحوا، وقد أطبقت عليهم صخرة، فقالوا: لا ينجيكم مما أنتم فيه إلا أن تسألوا الله بصالح أعمالكم - الحديث (رواه البخارى .
تابع مدارج السالكين: ج ٣: ص ٤٠٣ .

أوقاتك : وقت تسلم فيه من هواجس نفسك، ووقت تسلم فيه من سوء ظنك^(١).

وقد شرح ذلك الإمام ابن قيم الجوزية، فرأى أن ترك رؤية الاستقامة يكون بالذهول بمشوده عن شهوده، فيغيب بالمشهود المقصود (سبحانه) عن رؤية استقامته في طلبه، لأن رؤيته الاستقامة تحجبه عن حقيقة الشهود^(٢).

وإذا شهد أن الله (تعالى) هو المقيم له، والمقوم، وأن استقامته وقيامه بالله تعالى، لا بنفسه، ولا بطلبه : غاب بهذا الشهود عن استشعار طلبه لها^(٣).

ومن الجدير بالذكر : أن هذا المقام مقام أولياء الله تعالى، من يترقى إليه من العارفين بالله تعالى، لا يعرفهما ولا حزناً، قال الله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤).

الفصل الثالث

الاستقامة بين الفطرة والنفس المطمئنة

تمهيد :

إن الفطرة حقيقة، وحق في وجدان الإنسان، لقد خلقها الله تعالى مع أصل وجوده، فلا سبيل له لمحوها، مهما فعل، وضل عن استقامته، لكنه من السهل عليه أن يطمسها، بأفعال نفسه الأمارة بالسوء .

ومن ثم فإن قلب الإنسان، ووجدانه : قوى ربانية تلهمه بالحق، والعدل وكل

ما هو خير.

(١) الرسالة القشيرية : ط : ص ١٦٣ .

(٢) مدارج السالكين : ج ٢ : ص ١١٦ (بتصرف) .

(٣) مدارج السالكين : ج ٢ : ص ١١٦ (بتصرف) .

(٤) سورة يونس آية : ٦٢ .

لكن النفس من طبيعتها الأنانية، وحب المدح، والثناء، والسعي لنيل كل ما يحقق ذاتها.

قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١).

فإذا أراد الإنسان الاستقامة الصحيحة، طهر نفسه، واستقام على نهج استكان الكتاب، والسنة النبوية الشريفة، لكن إذا استكان لجلبات النفس فى الأنانية، وحب المدح والثناء، وتحقيق كل يهواه فى ذاته ملكته شهوته، واتبع غواية الشيطان، وصار عبداً لهواه .

الجدير بالذكر: أن ما فطر الإنسان عليه هو الاستقامة، فى نهج الكتاب والسنة النبوية الشريفة .

ويعلم الإنسان ذلك عندما يهتدى إلى الله تعالى، وعلى نقيض ذلك عندما يضل طريقه بإفراط أو تفريط، فكلما بعد عن الاستقامة أصابه الحزن والهم، والشقاء .

ومن ثم فإن الصلة وثيقة بين طريق الاستقامة، والوسطية فى نهج الكتاب والسنة، وبين فطرة الإنسان، التى خلقه الله تعالى عليها، والمحجة البيضاء .

فالرجوع إلى الحق هو فى حقيقته تطهير الإنسان، لما ران على قلبه، من ضلال فى إفراط وتفريط .

كما أنه سعادة له؛ لبلوغه مقام النفس المطمئنة، وكل ذلك لرجوعه لأصل فطرته يبين ذلك التالى .

تعريف ومفهوم الفطرة:

الفطرة فى اللغة: من فطر الشيء نشأه، وبدأه، وفطر الله تعالى الخلق يفطرهم، وبدأهم .

(١) سورة الشمس آية: ٧: ١٠ .

والفطرة: الابتداء، والاختراع، كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١).

والفطرة: الخلقة .

والفطرة: ما فطر الله تعالى عليه الخلق من المعرفة به (٢).

والفطرة فى الاصطلاح:

قال الإمام الجرجاني: هى الجيلة المتهيئة لقبول الدين (٣).

وقيل فى الفطرة: الخلقة التى يكون عليها كل موجود أول خلقه، والطبيعة السليمة لم تشب بعيب، وفى القرآن الكريم: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (٤).

والفطرة السليمة فى اصطلاح الفلاسفة:

استعداد لإصابة الحكم، والتمييز بين الحق والباطل.

(والفطرية):

القول بأن الأفكار والمبادئ جبليّة، وموجودة فى النفس قبل التجربة والتلقين (٥).

ولذلك نرى رأى ابن تيمية فى الفطرة أنها:

"محبة الله تعالى، وهى القوة التى أودعها الله تعالى فى النفس، وبها نعرف الله تعالى، ونشهد به، ونحبه، ونخلص له فى عبادته، وأن محبة الله تعالى فطرية فى النفس" (٦).

(١) سورة فاطر آية: ١ .

(٢) لسان العرب: مادة فطر ط (المعارف) .

(٣) التعريفات: الجرجاني: ١٤٧ .

(٤) سورة الروم آية: ٣٠ .

(٥) المعجم الوجيز: ص ٤٧٦ .

(٦) التصوف فى تراث ابن تيمية: الطبلاوى محمود سعد: ط الهيئة العامة للكتاب: ص ١٠٤ .

الفطرة فى القرآن الكريم:

إن الفطرة فى القرآن الكريم تتناول ثلاث أركان رئيسية:

الركن الأول: الخلق والإبداع: قال الله تعالى: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١).

الركن الثانى: الوجدانية، وتسبيح الكون بها: قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (٢)، وقال الله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٣)، وقال الله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤).

الركن الثالث: فطرة الإنسان بالدين القيم: قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (٥).

مما سبق يتبين أن الفطرة بوجدانية الله تعالى، ووجوده سبحانه لا تخص الإنسان فقط، بل كل الكون فطر على معرفة الله سبحانه وتعالى، ووجوده لكن الإنسان مكلف بحمل أمانة معرفته سبحانه وتعالى؛ ومن ثم فإن كل المخلوقات تتأثر بعمل الإنسان، سواء كان فى استقامته، أو ضلاله لطريقها، قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (٦).

(١) سورة الأنعام: ٧٩.

(٢) الإسراء: ٤٤.

(٣) مريم: ٩٠.

(٤) الحديد: ١، الصف: ١.

(٥) الروم: ٣٠.

(٦) الدخان: ٢٩.

وقفة حول اعتراف الباحثين بالفطرة :

على الرغم من هيمنة المادة على الإنسان في العصر الحديث، إلا أن الباحثين في طبيعة الإنسان، اعترفوا بوجود حاسة وجدانية لإدراك الخير والشر، فرأوا انها قوة باطنية يولد الإنسان مزوداً بها^(١).

أطلق بعضهم عليه بالضمير^(٢).

وبعضهم قال انها البصيرة الإنسانية .

وعبر عنها فريق آخر بالوجدان، فرأوا انها النور الحى، الذى يهتدى المرء به إلى العمل الصالح، ويحقق التقوى .

وقد أطلق عليها برجسون اسم (الحدس)، وجعلها نوعاً من الإدراك الداخلى^(٣).

وبالإضافة لما سبق، وعلى الرغم من انشغال الإنسان فى هذا العصر بالتقدم الحضارى المادى، إلا أنه يرى أنها حاسة هامة جداً فى ضمير الإنسان .

والكثير من الباحثين جمع بين إطلاقتين لها: الضمير، والفطرة، وقد استدلوا بكثير من الآيات القرآنية منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٤).

ومن ثم رأوا أن النزاع بين الحق والوسوسة فى وجدان الانسان، هو عمل الضمير، واعتبروا أن الضمير هو الميدان الذى تقع فيه تلك المعركة، فهو حاسة فطرية، قال ﷺ: (البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك فى القلب، وتردد فى الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك)^(٥).

(١) الفلسفة الخلقية: توفيق الطويل: ط الهيئة العامة للكتاب: ص ٣١١ (بتصرف) .

(٢) سيكولوجية الضمير: محمد كامل النحاس: ط النهضة: ص ٢٠ (بتصرف) .

(٣) الوجدان: د / عادل العوا: ط الهيئة العامة للكتاب: ص ٥ .

(٤) الاعراف: آية ٢٠١ .

(٥) الحديث فى مسند الإمام أحمد: ج ٤: ٢٨٨ .

كما قيل عن الضمير أيضاً: الصوت القائم داخل النفس الإنسانية، يوجهها إلى ما قامت به، فإن كان حسناً طمأنها إليه، وإن كان فاسداً نبهها من الوقوع فيه، ثم أنبها عليه .

ومن ثم من الباحثين من اعتبر الضمير هو الفطرة، ومنهم من اعتبره قوة مكتسبة، وثمره قائمة، تدعمها غريزة فطرية، قادرة على التوجيه^(١).

لكننى أرى تسمية القرآن الكريم بالفطرة هو خير تعبير، لحقيقة البصيرة فى وجدان الإنسان .

الحلال والحرام والفطرة:

مما سبق يتبين أيضاً أن من الفطرة معرفة الحلال والحرام، ليس فى تحديدهما وتفصيلهما، لكن فى أن الحلال يتفق مع طبيعة النفس البشرية، وعلى نقيضه الحرام، ويتبعه المكروه .

وذلك لأن الحلال هو القسط، والقسط هو الحق، لأنه ضد عدم قيام الشيء فى موضعه .

والحلال يقصد به العدل، وهو الوسط، والوسط هو الاختيار الأمثل . فالحلال ضد الحرام، والحلال معناه الاعتدال .

ومفهوم الاستقامة فى الإسلام استقامة النفس، والأشياء فى مواضعها، ومن ثم يتحقق للنفس أمنها، واستقامتها، وصلاحها .

أما الحرام: فهو ظلم، وجور، وانحراف ضد طبيعة الإنسان، والأشياء . وهو نقص الشيء^(٢).

(١) تابع المشكلة الخلقية من منظور فلسفى: ادوارد كاتنور: ط دار الجليل: ترجمة عبد الرحمن، وناهد شوقى: ص ٩١، نقلاً بتصرف من "تأملات غزالية فى الأخلاق النظرية": ١. د / محمد حسينى موسى محمد الغزالى: ط الزقازيق (الشرقية - مصر) ص ١٦٩، ١٧٠ .

(٢) نحو منهج إسلامى: د / حسن الشرقاوى: ط السفير الاسكندرية: ص ١٥٧، ١٥٨ (بتصرف) .

وعلى ذلك فإن وجوب الحلال، والنهي عن الحرام، هو لاعتدال النفوس على طريق الاستقامة، بين الإفراط والتفريط .

فهما أسس، وقواعد لحماية النفوس، يرجعان إلى فطرة الله تعالى في خلقه . ومن ثم فهما ضرورات عقلية، للحياة الصحيحة، والصالحة في الوجود، قال الله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (١) .

وقال الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢) .

القلب السليم والاستقامة :

إن القلب هو أصل فعل الإنسان، والاساس لصلاح، أو فساد النفس، فإن كان خالصاً لوجه الله تعالى، صدقت أفعال النفس، واستوت على الاستقامة وهداها الله تعالى إلى الثبات عليها، دون إفراط وتفريط، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) .

ومن ثم فإن تلك العضلة أساس حياة الإنسان في الدنيا، والآخرة .

فكما ارتبط به صحة الإنسان الأساسية في جسده، كذلك ارتبط به صلاحه وفساده، ونعيمه أو عذابه، قال ﷺ : (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) (٥) .

ولذلك نجد خطاب الله تعالى للإنسان به، قال الله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا

(١) البلد : ١٠ .

(٢) الروم : ٤١ .

(٣) الأنعام : ١٥٣ .

(٤) آل عمران : ١٠١ .

(٥) هذا جزء من حديث، رواه البخارى في كتاب الإيمان، باب (فضل من استبرا لدينه) ج ١ : ص ٢٠ .

يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١﴾.

الجدير بالذكر إذن: أن القلب لا يكون سليماً إلا إذا كان مستقيماً، على شريعة الله، ومن ثم لا يثبتته الله تعالى على الهداية الصحيحة، إلا إذا عمل بشرعه واختار نهجه.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٣).

وإن ما تفعله النفس الإنسانية، من سوء يتراكم على القلب، لقد وصفه الله تعالى بالران، قال الله تعالى: ﴿كَأَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٤).

وأما التوبة، والرجوع على الله تعالى تطهر القلب، وتركية، وترجعه قلباً سليماً، معافياً من الخلل والأمراض، قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (٥).

القلوب أربعة:

قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلاف، وقلب منكوس، وقلب مصفح .

(١) الأعراف: ١٧٩ .

(٢) الشعراء: ٨٩ .

(٣) الصافات: ٨٤ .

(٤) المطففين: ١٤ .

(٥) التحريم: ٤ .

"فأما القلب الأجرد: فقلب المؤمن، سراجة فيه نوره .

والقلب الأغلف، قلب الكافر .

والقلب المنكوس، قلب المنافق، عرف ثم أنكر .

والقلب المصفح: القلب الذى فيه إيمان، ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه، كمثل القرحة يمدّها القيح والدم، فأى المدين غلبت على الآخر غلبت عليه^(١).

وعلى ذلك لقد قسم الإمام الغزالي القلب فى الثبات على الخير، أو الشر أو المتردد بينهما إلى ثلاثة:

القلب الأول: هو الذى عمر بالتقوى، وزكى بالرياضة، وطهر عن خبائث الأخلاق فتتفرج فيه خواطر الخير، من خزائن الغيب، فيمده الملك بالهدى .

القلب الثانى: هو المخذول، المشحون بالهوى، المندس بالخبائث، والمלוث بالأخلاق الذميمة؛ لذلك يقوى فيه سلطان الشيطان؛ لإتساع مكانه، ويضعف فيه سلطان الإيمان، ويمتلئ بدخان الهوى، فيقدم النور، ويصير كالعين المملئة بالدخان، لا يمكنها النظر، ولا يؤثر عنده زجر، ولا وعظ، إذا أصر على حالته .

القلب الثالث: قلب يبتدى فيه خاطر الهوى، فيدعوه إلى الشر، فيلحقه خاطر الإيمان، فيدعوه إلى الخير^(٢).

طبيعة النفس، وأنواعها:

لقد سبق الإشارة إلى طبيعة النفس فى الأنانية، وحبها المدح والثناء؛ ولذلك فحسب ما تعمل، وتجاهد انقسمت فى القرآن الكريم إلى ثلاثة أنواع:

(١) تابع مسند الإمام أحمد: ج ٣: ص ١٧ .

(٢) مختصر منهاج القاصدين: المقدس: ط بيروت: ص ١٥٠، ١٥١ (بتصرف) .

النوع الأول: الأمانة بالسوء:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾^(١) هنا قد تحدث القرآن الكريم عن طبيعة النفس، عندما تنفصل عن الأمر الإلهي. ومن ثم فإنها تتصف بالجهل، والبخل، والحرص، والكبر، والغضب، والشهوة المفرطة، والحسد، والغفلة.... ولذلك عرفت بأنها خبيثة^(٢) واقعة في ظلمات أعمالها، فلا تفرق بين حق، وباطل، فمن الجائز أن تعمل الحق، وتتبعه، لكن لباطل، وهوى ضميرته، ولذلك فالأكثر في أخلاقها النفاق، والرياء.

ومن فقد تكاثفت الحجب بينهما، وبين الحق، وأفسد الصداق صفح مراتها^(٣). وإن اهتمت هذه النفس، ومالت إلى التطهير، وطريق الرشاد كان عليها كما رأى الكثير من آئمة الصوفية: الذكر سرّاً، وجهراً؛ لتتقظ من الغفلة ووقوفها، وثباتها على أبواب الشريعة، كذلك تخويفها بالموت، وعذاب القبر وأهوال يوم القيامة، وعذاب جهنم.... وما إلى ذلك. فإن هذا المقام مترادف عليه حالتان:

الخوف مع الرجاء، فيشمل حالها الخوف الشديد، فيتبدل الخوف بالقبض. ثم يعقبه البسط، وذلك بذكرها لله تعالى، واستغفاره، وتعلقها برحمته، وبعد ذلك يتبدل القبض بالخشية، والبسط بالأنس.

وقد رأى الكثير أيضاً من العارفين بالله تعالى، أنه بعد ذلك يتبدل حال القبض بالجلال، والبسط بالجمال.... وذلك في طريقها لله تعالى^(٤).

(١) يوسف: ٥٣.

(٢) السير والسلوك إلى مالك الملوك: الشيخ قاسم بن صلاح الدين الحلبي: ط دار المكة المكرمة (الجيزة مصر) ص ٦٦ (بتصرف).

(٣) روضة التعريف بالحلب التشريف ي: الوزير لسان الدين الخطيب: ط دار الفكر العربي: ص ١٤٣ (بتصرف).

(٤) تابع المرجع: ص ٧١ (بتصرف).

وعلى ذلك: فإن خير زكاة لها، وتطهير هو تذكرها الدائم بالموت، والفناء في هذا العالم، وحساب الله تعالى لها، بحيث أن لا يثمر هذا الخوف القنوط واليأس، كذلك لا يؤدي رجاءها لله تعالى التواكل، والركون .

ولذلك تعمل أئمة الصوفية على إرشاد هذه النفس، بالتوازن بين الخوف والرجاء، على حسب جهادها، وحالتها من الرغبة في الصلاح، وصفاء قلبها مما ران عليه .

الجدير بالذكر إذن: أن الأمر بالسوء في المغالاة، والتشديد، كما هو في التفريط، وترك الأمر، واتباع الهوى، بل تجرد النفس هواها الأكبر، والأكثر في الحق، واتباعه؛ لأسباب منها:

أولاً: تزوين الشيطان لها ذلك، الأكثر في اتباع الحق، فيغذيها ويعطيها عتاد السوء، وذلك لأنها اختارته طريقاً، واتبعته، بجانب أن الغاية القصوى للشيطان الرحيم هو إضلال دعاة الحق .

ثانياً: من الفطرة لدى الإنسان أنه يُقدر، ويعظم من يفعل خيراً وخاصة إذا كان هذا الخير، من المثل العليا التي يتمناها، ويحتاجها، كحفظ القرآن الكريم، وتفسيره، والدعوة والإرشاد به وما إلى آخر .

وأنبه لذلك أن هؤلاء أشد خطراً من المفرطين في الدين، فإنهم كما سبق أضرروا شراً، وأظهروا خيراً، والناس لها ظواهرهم، أما التفريط في الدين فهو بين، وواضح، وعلى خلاف ما فطر عليه الإنسان .

وجملة ما تقدم: أن الإمتثال بالقيم فطرة لدى الإنسان، يحبها ويتمناها، وإن كان لا يفعلها، كذلك أشير أن من فرط نقصانه عنها، وهو يتمناها في وجدانه، أو لأنها فطرة يعلم بصحتها: فمن ذلك التناقض، والتضاد يزداد قلبه حقداً وكرهاً،

وحرباً على الحق، ومن يتبعه، والكثير منهم، فى عصرنا، يثير الشبه حول الدين، ومن استقام عليه .

ومن البين، والواقع فى المغالاة والتشدد:

أنه كلما بعد الإنسان عن الاستقامة، وطريق الحق فى وسطيته، كلما كان عصبياً، ومريضاً، حيث فقد قلبه الراحة، والسكنية؛ ولذلك نهى عنها رسول الله ﷺ، قال ﷺ: (من قاتل تحت راية عمية يدعو إلى عصبية، أو يغضب لعصبية فقتلته جاهلية) (١).

قيل فى مفهوم "عمية" بضم العين، وكسرهما، مع تشديد الميم: من العماء وهو الضلالة، وأصله الأمر الأعمى، الذى لا يستبين وجهه، فلا يعرف أهو حق أم باطل (٢).

وأصل الغضب: ثوران دم القلب، وغليانه عند حدوث أمر غير مرضى فهو إما المذموم، وإما المحمود .

فالمذموم هو التعصب، والمغالاة والتشدد، والقتال لأجل العمية، أو الدعاوى الضالة، أو العصبية .

ومن ثم كما قال ﷺ أنه قد يُقتل، ويموت، كما أهل الجاهلية من الضلال . وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (قتال المسلم كفر وسبابه فسوق) (٣).

والعرب تسمى الخصامة مقاتلة، والمعنى مقاتلة المسلم، وحمل السلاح عليه كالكفر.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه: كتاب الإمارة: باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وابن ماجة فى كتاب الفتن، باب العصبية .

(٢) شرح النووى على مسلم: ج ١٢ / ٢٣٨ .

(٣) أخرجه البخارى (كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر) .

أما سبابه فهو فسوق: يقال سبه يسببه سباً وسبأياً: أى طعنه، وشتمه وأصل السب: التكلم فى عرض الإنسان، بما يعيبه^(١).

أما الفسوق: مصدر فسق، والفسق: هو الخروج عن الحق، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفَسَقٌ﴾^(٢)، أى خروج عن الحق.

والفسوق فى عرف الشرع أشد من العصيان، وأدنى من الكفر، قال تعالى: ﴿وَكُرْهُ إِلَى كُفْرٍ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ﴾^(٣).

ولا خلاف بين المسلمين أن الفسق خروج عن الدين، وتختلف درجة معصيته باختلاف لفظ السب وأثره.

ومن ثم قال بعض المحققين: المرید على قسمين: مراد حقيقى، ومجازى . والمرید الحقيقى: هو من كملت فيه أهلية الإرادة .

والمرید المجازى: هو الذى ليس قصده إلا الدخول مع القوم، للتزین، والمباهاة والعلو بشأنهم فى حياتهم الدنيا^(٤).

النوع الثانى: اللوامه:

إن من مقامات النفس اللوم على ما هى عليه من تقصير، وبعد عن الحق؛ لذلك كما نقل عن آئمة الصوفية ما زالت تتصف بالكبر، والعجب والرياء الخفى وحب الشهرة، والرياسة، لكنها تختلف عن الأماره بالسوء؛ ومن ثم ترى الحق حقاً، والباطل باطلاً، ولها رغبة جادة فى المجاهدة وموافقة الشرع، وتعمل من الصالحات، وأفعال البر الكثير، لكن مع حبها أن يُثنى عليها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ

(١) شرح النووى على مسلم: ج١: ص ٢٥٣ .

(٢) الأنعام: ١٢١ .

(٣) الحجرات: ٧ .

(٤) الفتوحات الإلهية: أحمد بن عجيبة: ط عالم الفكر: ص ٢٤٨ (بتصرف) .

بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ ﴿١﴾ .

وعلى ذلك، فقد قيل عن هذه النفس أن في داخلها خصمان متنازعان :
الهوى، والاستقامة، ولذلك فهي منقسمة، وعلى أكثر أوقاتها، في حساب ولوم
فإنها لم تعتاد الاستقامة .

وترشد آئمة الصوفية هذه النفس، على تكثيف مجاهدة هذه البقايا من
أوصاف السوء الذميمة، بتطويعها على الاستقامة الشرعية، وحب أعمال الخير
بالإيثار على أنانيتها، والإكثار من ذكر الله تعالى، والعمل لوجه الله تعالى .

النوع الثالث : المطمئنة :

إن معنى الطمأنينة في اللغة : السكن، والمقصود بالسكن : القلب .
فالطمأنينة : سكون يقويه أمن صحيح، فيه استراحة الأنس بالله تعالى .
أما السكينة، كما ورد عن آئمة الصوفية، صولة تورث خمود الهيبة أحياناً؛
ومن ثم تكون نعتاً، وحين بعد حين .

أما الطمأنينة نعت لا تزايل صاحبها (٢) .

ومن ثم قيل من علامة دخول السالك في هذا المقام :
أنه لا يفارق الأمر التكليفي شبراً، ولا يلتذ إلا بالتخلق بأخلاق المصطفى ﷺ ،
ولا يلتذ إلا باتباع أقواله؛ ولذلك قيل عن هذا المقام أنه " التمكين "، بعد مقام
النفس اللوامة في التلوين .

ولعظم هذا المقام قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي
إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً (٢٨) فَأَدْخِلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ﴾ (٣) .

وسوف يأتي تفصيل ذلك .

(١) سورة القيامة آية : ٢ . تابع السير والسلوك إلى مالك الملوك : ص ١١٨ (بتصرف) .

(٢) منازل السائرين : الإمام الهروي : ط الباي الحلبى : باب الطمأنينة .

(٣) سورة الفجر آية : ٢٧ .

وبذلك يكون قد تبين أن الاستقامة هو المقام الذى اطمأنت فيه النفس، أما إذا بعدت عنه بإفراط، أو تفريط، فهي إما أن تكون أماراة بالسوء، وإما لوامة .

صلاح النفس عند الغزالي:

يري الإمام الغزالي أن المطلوب من جهاد النفس، والرياضة هو رد شهوتها إلى الاعتدال، الذى هو وسط بين الإفراط والتفريط^(١).

وإن الاعتدال فى الأخلاق هو الصحة فى النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض، فإن مثال النفس فى علاجها كالبدن فى علاجه .

فكما أنه لابد من احتمال مرارة الدواء، وشدة الصبر عن المشتبهات لصلاح الأبدان المريضة، فكذلك لابد من احتمال المجاهدة، والصبر على مداومة مرض القلب، بل أولى، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت، ومرض القلب عذاب يدوم بعد الموت أبداً .

ولذلك ينبغى للذى يطب نفوس المريدين، أن لا يهجم عليهم بالرياضة، فى فن مخصوص، حتى يعرف أخلاقهم وأمراضهم، إذ ليس علاج كل مريض واحداً فإذا رأى جاهلاً بالشرع علمه، وإذا رأى متكبراً حملة على ما يوجب التواضع، أو شديد الغضب ألزمه الحلم .

وأشد حاجة الراض لنفسه، قوة العزم، فمتى كان متردداً، بعد فلاحه ومتى أحس من نفسه ضعف العزم تصبر، فإن نقصت عزيمتها عاقبها لثلا تعاود^(٢).

وعلى ذلك يري أن كل عضو خلق لفعل خاص، فعلامة مرضه أن يتعذر منه ذلك الفعل، أو يصدر منه مع نوع من اضطراب، فمرض اليد تعذر البطش، ومرض العين تعذر الإبصار، ومرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذى خلق

(١) منهاج القاصدين ص: ١٥٢ (بتصرف) .

(٢) المرجع: ص ١٥٤ (بتصرف) .

لأجله، وهو العلم والحكمة، والمعرفة، وحب الله تعالى وعبادته، وإيثار ذلك على كل شهوة .

فلو أن الإنسان عرف كل شيء، ولم يعرف الله سبحانه، كان كأنه لم يعرف شيئاً .

ومن ثم رأى أن علامة المعرفة: الحب، فمن عرف الله تعالى أحبه، وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات، فمن أثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض . ومرض القلب خفى قد لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه .

ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة، فليتفقد كل عبد صفاته، وأخلاقه، وليشتغل بعلاج واحد بعد واحد، وليصبر ذو العزم على مضض هذا الأمر .

فمن أراد الوقوف على عيب نفسه، فله في ذلك أربع طرق :
الطريقة الأولى: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، يعرفه عيوب نفسه، وطرق علاجها .

الطريقة الثانية: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، وينصبه رقيباً على نفسه، لينبئه على المكروه من أخلاقه وأفعاله .

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (رحم الله امرءاً أهدي إلينا عيوبنا) .

وكان أيضاً رضي الله عنه يسأل حذيفة: (هل أنا من المنافقين؟)
الطريقة الثالثة: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة أعدائه، فإن عين السخط تبدى المساوئ، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكّر عيوبه، أكثر من انتفاعه بصديق مدهن يخفى عنه عيوبه .

الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذموماً فيمننا بينهم يجتنبه^(١) .

(١) المرجع: ص ١٥٥، ١٥٧ (بتصرف) .

الفصل الرابع الاستقامة..... والسعادة

إن السعادة هي الغاية والهدف لكل الناس، لكن (كما سبق) منهم من تعجل بجهله نيلها، فضل طريقها الصحيح، قال الله تعالى في وصفه: ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾^(١).

ومن ثم رأى الإمام الغزالي أن لوسطية الأخلاق سرَّ عظيم، منوط بالسعادة الحقيقية، وذلك على أساس سلامة القلب من عوارض الدنيا^(٢).

ولذلك قال رحمه الله تعالى:

"لما كانت السعادة التي هي مطلوب الأولين والآخرين، لا تنال إلا بالعلم والعمل..... ووجب معرفة العلم، والتمييز بينه، وبين العمل المشقى"^(٣).

ومن ثم قال:

".... أن الفتور عن طلب السعادة حماقة لا تجب من المسلم"^(٤).

حقيقة السعادة عند أبو حامد الغزالي:

لقد رأى الغزالي أن حقيقة السعادة، وذوقها بوجهها الكامل، دون نصب ولا ألم لا تكون إلا في الدار الآخرة، والتي تعنى بقاء بلا فناء، ولذة بلا عناء، وسرور بلا حزن، وغنى بلا فقر، وكمال بلا نقصان، وعز بلا ذل.... وعلى الجملة: كل ما يتصور أن يكون مطلوب طالب، ومرغوب راغب، على وجه لا تنقصه تصرم الأحقاب، والآجال.

(١) الأحزاب: ٧٢.

(٢) الإحياء: ج ٣: ص ٥٦ (بتصرف).

(٣) تابع مقدمة كتاب ميزان العمل: الإمام الغزالي.

(٤) المرجع السابق: ص ١٨٠.

وإن فتور الخلق عن سلوك طريق السعادة؛ لضعف إيمانهم باليوم الآخر .
ومن ثم رأى رحمه الله تعالى أن كل ما يوصل إلى السعادة الأخروية، ويعين عليها قد يسمى سعادة، لكنها ليست كاملة؛ ولذلك فلها مسميات أخرى أصدق، وأشمل لمقام المسلم فيها: كالإطمئنان، والسكينة، والرضا، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (١).

ولذلك فإن وصف السعادة في الآخرة لا يكون إلا: بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

وعلى ذلك رأى الإمام أن الأحق من الناس هو الذى ضل طريق الاستقامة فالواقع المعروف أن الدنيا ليست تصفوا لأحد، فإن الممعن فى اتباع الشهوات والمعرض عن النظر فى المعقولات، شقى فى الدنيا باتفاق، وشقى فى الآخرة (٢).
ومن ثم فإن العمل الشرعى فى الاستقامة، يحقق للمسلم تفريغ قلبه لله تعالى .
قال الإمام الغزالي:

"إن تأثير العمل لإزالة ما لا ينبغي .

والسعى فى العلم، سعى فى تحصيل ما ينبغي .

والمشروط هو المقصود، وهو أشرف من الشرط" (٣).

وكذلك فإن الحياة الطيبة من تذوق السعادة فى طريق الاستقامة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤).

(١) سورة الفجر: ٢٧، ٢٨ .

(٢) المرجع السابق: ص ١٩٢، ١٩٣ (بتصرف) .

(٣) ميزان العمل: ٢١٧ .

(٤) سورة النحل: ٩٧ .

ومن ثم رأى الإمام القشيري أن الحياة الطيبة تعرف بالذوق، لا بالنطق . فقوم قالوا إنه حلاوة الطاعة، وقوم قالوا إنه القناعة، وقوم قالوا إنه الرضا، وقوم قالوا إنه النجوى، وقوم قالوا إنه نسيم القرب، والكل صحيح والكل واحد أهل^(١) أى مقام من مقامات العبودية لله تعالى .

ولذلك فإن وجود الإطمئنان كمقام للنفس المؤمنة، يأتى بعد حال السكينة . وذلك كما قال الإمام الغزالي :

"وإما الطمأنينة فى وجود من بعد اعتدال بفرح، واستبشار لمعرفة القلب بالمزيد، وهى مستصحبة مع الأنس؛ لأنها مقصودة فى ذاتها، والسكينة وسيلة نحثها على الأدب والاعتدال"^(٢) .

كذلك رأى الإمام الغزالي، أن طريق الصوفية المعتدل فى تصفية النفس، هو أصدق طريق لمقام النفس المطمئنة، فمستمرهم استقامة الأنبياء، والأولياء والإقبال بكل همة على الله تعالى^(٣) .

وقد قيل: "لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه فى أربعة أشياء: فى المنع والعطاء، والعز، والذل"^(٤) .

حقيقة السعادة عند ابن تيمية:

وبالإضافة لما سبق: أذكر رأى ابن تيمية فى حديثه، عن الاستقامة عند الصوفية:

حيث رأى أن اللذة والسرور أمر مطلوب، بل هو مقصود كل حى، وكونه أمراً مطلوباً، ومقصوداً أمر ضرورى من وجود الحى .

(١) لطائف الاشارات: الإمام القشيري: ط الهيئة المصرية العامة للكتاب: ص ٣٢٠ (بتصرف) .

(٢) روضة الطالبين: الإمام الغزالي: ط الجندى: ص ٧٨ .

(٣) مباحث فى فلسفة الأخلاق: د/ محمد يوسف موسى: ط السلفية: ص ٥٨ (بتصرف) .

(٤) تقريب الأصول لتسهيل الوصول لمعرفة الله والرسول: الشيخ: أحمد بن زيني دحلان: ط البابى الحلبي .

وهو فى المقاصد والغايات بمنزلة الحس، والعلوم البديهية فى المبادئ والمقدمات .
فلا بد من مراد مطلوب محبوب لنفسه من العمل والجهد، فإذا حصل المحبوب
المطلوب المراد، فاقتتران اللذة، والنعمة، والفرح، والسرور به على مقدار قوة محبته،
وإرادته وقوته فى نفسه أمر ذوقى وجودى، ضرورى؛ ولهذا غلبت على كلام العباد
الصوفية أهل الإرادة، والعمل اسم : الذوق والسرور والنعمة، والوصول،
والنيل.... ونحو ذلك من الأسماء المتقاربة .

ولهذا كان أئمة الهدى، ممن يتكلم فى العمل والتصوف، يوصون باتباع
الكتاب والسنة، وينهون عما خرج عن ذلك، كما أمرهم الله تعالى، والرسول ﷺ
وكلامهم فى ذلك كثير، ومنتشر، مثل قول "سهل بن عبد الله التستري: (كل
وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل) (١) .

وعلى ذلك رأى :

أن اللذة إذا كانت مطلوبة لنفسها، فهى إنما تدم إذا أعقبت الماء، أعظم منها أو
منعت لذة خيراً منها .

وتحمد إذا أعانت على اللذة المستقرة، وهو نعيم الآخرة، التى هى دائمة
عظيمة، كقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ
يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

وقال الله تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٣) .

فإن الله سبحانه إنما خلق الخلق لدار القرار، وهى الجنة والنار، فأما الدار الدنيا

(١) الاستقامة : ابن تيمية : ص ٣٣٤، ٣٣٥ (بتصرف) .

(٢) يوسف : ٥٦، ٥٧ .

(٣) الأعلى : ١٦، ١٧ .

فمنقطعة، ولذاتها لا تصفو، ولا تدوم، بخلاف الآخرة فإن لذاتها، ونعيمها صاف من الكدر، دائم غير منقطع .

ليس فيها حزن، ولا نصب، ولا لغوب، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

كذلك فإن كل لذة أعانت على لذة الآخرة، يقصد بها فاعلها وجه الله تعالى من الحلال في أكله، وشربه، ولباسه، ونكاحه، وشفاء غيظه في قهر عدوه، في الجهاد في سبيل الله تعالى، ولذة علمه، وإيمانه وعبادته وغير ذلك، فهو يثاب على تحصيلها (٢).

وعلى نقيض ذلك: كل لذة أعقت المأ في الدار الآخرة، أو منعت لذة الآخرة فهي محرمة، مثل لذات الكفار، والفساق، بعلوهم في الأرض وفسادهم ولذاتهم، هذه إملاء؛ ليزدادوا إثماً، وإنها مكر واستدراج لهم .

أما اللذة التي لا تعقب لذة في دار القرار، ولا المأ، كذلك لا تمنع لذة دار القرار، فهذه لذة باطلة، إذ لا منفعة فيها، ولا مضرة وزمانها يسير .

وهذا هو الذي قصد النبي ﷺ بقوله: (كل لهو يلهو به الرجل المسلم باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته فإنهن من الحق) (٣).

أي كل حلال بغاية اتباع الحق، والبعد عن الباطل .

مفهوم اللذة إذن:

هكذا تبين مما ذكرته أن اللذة ليست هي السعادة في حقيقتها .

(١) السجدة: ١٧ .

الاستقامة: ص ٣٥٥، ٣٣٦ (بتصرف) .

(٢) في صحيح مسلم .

(٣) الاستقامة: ص ٣٣٦، ٣٣٧ (بتصرف) .

ومن ثم فهي ليست بجزاء، وإن كانت من نعم الله تعالى في الدنيا، فالناس على اختلاف فيها، بين صحة، ومرض، وبين غنى، وفقر وهكذا كما في واقع الحياة الدنيا .

ولذلك نرى أنها فتن، وامتحان للناس، من حيث وجودها، وعدمها، قال الله تعالى: ﴿ أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (١).

وإن في وجودها، وعدمها قلما تخلو عن الآلام، والأحزان، والهموم. والجدير بالذكر أرى أن حقيقة السعادة في الطريق الصحيح، في الكتاب والسنة النبوية الشريفة، في كل أفعال، وأعمال الإنسان، وأن يكون لله، ومن الله، وإلى الله، وبالله تعالى.

وأشير قبل نهاية هذا الحديث:

في الواقع أن وجود المتع في الحياة الدنيا، ليست شرطاً في تذوق الناس لها فهي متفاوتة، ونسبية، على حسب أحوال الناس، كذلك فإن حقيقة التذوق نفسها بين الوجود والعدم.

فكثير من الناس عندهم أكثرها، ومع ذلك يعانون من مرارة الحياة، وربما الشقاء، والعذاب، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ (٢).

ولذلك فلا سكينه للإنسان في حياته، ولا راحة إلا أن يريد ويعمل لله تعالى.

(١) العنكبوت: آية ٢ .

(٢) محمد: ١، ٢، ٣ .

وأنبه أن كلمة السعادة في القرآن لم تطلق، إلا بما يخص الدار الآخرة في الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (٢).
أما الحياة الدنيا لم يذكر القرآن الكريم فيها إلا أنها المتاع القليل، أو الغرور قال الله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (٣).
وقال تعالى: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤).

* * *

الفصل الخامس

المستقيم ومقام العبودية

إن مقام العبودية كما هو معروف لدى الصوفية: هو الغاية الكبرى من الطريق الصوفي، فبعد أن يتم السالك مقام المحبة يأتيه اليقين، ويلقن بالحكمة وعندما يهديه الله تعالى لذلك يسمى عند الصوفية: عارفاً بالله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٥).

قال الإمام المرسى أبو العباس في قوله عز وجل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ (٦): "لم يقل نبيه، ولا رسوله، وهو نبيه ورسوله، وإنما كان ذلك لأنه أراد أن يفتح باب السريان للتابع، فأعلمنا بأن الإسراء من بساط العبودية، فالنبي ﷺ كان له كمال العبودية، فكان له كمال الإسراء، أسرى بروحه وجسمه، وظاهره

(١) هود: ١٠٨ .

(٢) هود: ١٠٥ .

(٣) الحديد: ٢٠ .

(٤) النحل: ١١٧ .

(٥) الحجر: ٩٩ .

(٦) الإسراء: ١ .

وباطنه، والأولياء لهم قسط من العبودية، فلهم قسط من الإسراء، يسرى بأرواحهم، لا بأشباحهم" (١).

من تعريف العبودية:

قيل من تعريف العبودية: القيام بآداب الربوبية، مع شهود ضعف البشرية (٢).

وقيل القيام بحق الطاعات بشرط التوقير، والنظر إلى ما منك بعين التقصير (٣).

شروط مقام العبودية:

إن الطريق الصوفي، على رغم أنه يسعى مرديه بالإمثال، بما كان عليه السلف الصالح، من الصحابة والتابعين، إلا أن الكثير منهم على مرّ العصور غالوا في عبادتهم حتى خرجوا تماماً، عن نهج رسول الله ﷺ، كذلك الكثير أيضاً أهملوا الكثير من الأسس الشرعية، وابتدعوا من الأفعال، والشطحات، حتى دخلوا في دجل، وشعوذة، أخرجتهم أيضاً عن الأسس الشرعية، وعن الدين كله.

قال ﷺ: (إن لكل عمل شرّ، ولكي شرّ فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد ضل) (٤).

ولذلك قال ابن عطاء الله في حكمه للتحقق بهذا المقام:

(كن بأوصاف ربوبية متعلقاً، وبأوصاف عبوديتك متحققاً) وفي شرح هذه

الحكمة قيل:

إن التعلق بأوصاف الحق: هو أن تلتجئ في أمورك إليه، وترفض كل ما سواه، ولا ترى في الوجود إلا إياه، فاذا نظرت إلى وصفه تعالى بالغنى، تعلقت بغناه،

(١) لطائف المنن: ابن عطاء الله السكندري: ط الشعب: ص ١٦٢، ١٦٣.

(٢) معراج التشوف إلى حقائق التصوف: أحمد بن عجيبة: ط الإعتدال (سوريا): ص ١٥.

(٣) إيقاظ الهمم في شرح الحكم: أحمد بن عجيبة: ص ٥٠٥٨.

(٤) إيقاظ الهمم: ص ٢٣٣ (بتصرف).

واستعنت عما سواه، وكذلك قدرته، وقوته، في حال ضعفك لا ترى إلا إياه..... وهكذا في جميع الأوصاف، والأسماء فكلها تصلح للتعلق، والتخلق والتحقق^(١).

وقد قيل أن أوصاف العبودية أربعة تقابلها أربعة:

أولها: الغنى ويقابله الفقر.

والمقصود هنا ليس فيما تملكه الأيدي، أو تفقده، لكن المقصود هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٢).

الثاني: العز، ويقابله الذل له سبحانه.

الثالث: القدرة، ويقابلها العجز أمامه سبحانه.

الرابع: القوة، ويقابلها الضعف له سبحانه^(٣).

فمن استغنى بالله افتقر إليه، ومن افتقر إلى الله استغنى به، ومن تعزز بالله ذل له، ومن ذل له تعزز به، ومن شاهد قدرته رأى عجز نفسه، ومن رأى عجز نفسه شاهد قدرة مولاه، ومن نظر ضعف نفسه رأى قوة مولاه، ومن رأى قوته علم ضعف نفسه.

لكن إن كان البساط النظر لأوصافك، فانت الفقير إلى الله، وإن كان البساط النظر إلى أوصافه فانت الغنى بالله، وهما يتعاقبان على العارف، فتارة يغلب عليه الغنى بالله، فتظهر عليه آثار العناية، وتارة يظهر عليه آثار الفقر إلى الله تعالى، فيلتزم الرعاية، فحين غلب الغنى على حبيب الله ﷺ أطعم ألفاً من صاع، وحين غلب عليه الفقر إلى الله شد الحجر على بطنه من الجوع^(٤).

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥٦٠) رواه البزار.

(٢) فاطر: ١٥.

(٣) إيقاظ الهمم: ص ٢٣٤ (بتصرف).

(٤) المرجع السابق: ٢٣٤.

وعلى ذلك فإن الغاية العليا، للصوفية الذين أرادوا وجاهدوا أنفسهم فى طريق الاستقامة الشرعية هى : العلم الصحيح بالله تعالى، والعمل به الصحيح دون إفراط ولا تفريط، قال ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه :

وصولك إليه وصولك إلى العدم به، وإلا فجل ربنا أن يتصل (١).

ومن شرح هذه احكمة اذكر بتصرف ما يلى :

الوصول إلى الله تعالى الذى يشير إليه أهل هذه الطريقة، هو الوصول إلى العلم الحقيقى بالله تعالى، وهذا هو غاية السالكين، ومنتهى السائرين.

وأما الوصول المفهوم بين الذوات، فهو متعال عنه سبحانه (٢).

وهى ثلاثة فى جملة على قول بعضهم :

أولها : العلم بالجلال المطلق، الذى لا ينتهى صاحبه، لغير العجز المحقق وحينئذ يقول : لا أحصى ثناء عليك، أنت كما اثنيت على نفسك سبحانه . . .

الثانى : الجلال من طريق الصفات، وكمالها، وكمال موصوفها الذى ينتهى إلى تعظيم الحق بها، إذ لا يرى لغيره صفة إلا بإثبات أوصافه إياها، فيقول لا حى، ولا عليم، ولا قادر سواه إلى غير ذلك .

الثالث : العلم بالجلال من طريق الأفعال، واتساعها، وعدم جريها على وفق مراد العبد فى كل حال، بل لما شاء الحق، دون حجب، ولا حصر، ولا توق. وقد قال بعض المشايخ :

من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز، ومن شهدهم لا حياة لهم فقد حاز . ومن شهدهم عين العدم فقد وصل (٣).

(١) غيث المواهب فى شرح الحكم العطائية : ابن عباد النفري : ط السعادة : ج ١ : ص ١٠٠ .

(٢) المرجع السابق : ج ٢ : ص ١٠٠، ١٠١ .

(٣) قررة العين فى شرح الحكم العطائية : أحمد بن زروق : ط بيروت - صيدا) ج ٢ : ص ١٤٠ - ١٤١ (بتصرف) .

وحينئذ يكون العارف بالله كما قال ابن عطاء الله السكندري في حكمه:

"قربك منه أن تكون مشاهداً القربة، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه" (١).

فالقرب الحقيقي قرب الله منك، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (٢)، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣)، وقال عز من قائل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (٤).

ومن ثم أيضاً قال ابن عطاء الله السكندري في مناجاته لربه:

"إلهي ما أقربك مني، وما أبعدني عنك" (٥).

ولذلك قالوا ما دمت في عالم الأشباح، فأنت بعيد من عالم الأرواح، في حال قربك (٦)، ويكفي العارف بالله تعالى معرفة قربه، والانس بقربه، وحب العمل لرضاه سبحانه وتعالى.

التجليات والحكم، وقلب العارف بالله تعالى:

لقد اشتهرت الصوفية بأن العارفين بالله تعالى أصحاب تجليات، وحكم لدنية ولهم مؤلفات عديدة في ذلك، بل وفي كثير من الأحيان شطحات فوق العقول، ادراكها وفهمها وذلك لقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٧).

وعلى كل فهذه العلوم إن خالفت، أو خالف قائلها الاستقامة الشرعية، في الكتاب والسنة، عندئذ لا تكون إلا من خواطر شيطانية أعوذ بالله تعالى منها.

(١) غيث المواهب في شرح الحكم العطائية: ج ٢: ص ١٠٢.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) الواقعة: ٨٥.

(٤) ق: ١٦.

(٥) غيث المواهب في شرح الحكم العطائية: ج ٢: ص ١٠٢.

(٦) إيقاظ الهمم: ص ٣٦٧، (بتصرف).

(٧) الكهف: ٦٥.

ولذلك فإن الحقائق كما عُرِفَت :

جمع حقيقة : وهى ما يظهر على اللسان، من معانى التحقيق الناشئة عن وضوح المعرفة، دون توقف .

وحال تجليها : وقت ظهورها فى أفق الحقيقة، والسر، ونكتتها فى القلب^(١) .

وهى ترد على قلب العارف من تجليات العلوم، والحكم، والمعارف، فتارة تكون علوماً، وتارة تكون حكماً ومعارفاً، وتارة كشفاً....^(٢) .

ولذلك لقد قرأت عن الإمام أبو الحسن الشاذلى، العارف بالله تعالى أنه كان يحضر مجلسه، أكابر علماء عصره فى علوم الفقه، منهم شيخ الإسلام العزبن عبد السلام، وابن دقيق العيد، وكانوا يطربون لحديثه، ويقولون : " هذا كلام قريب عهد بالله تعالى "، وكان الشيخ ابن دقيق العيد يقول : " والله ما رأيت أعرف بالله تعالى عن أبى الحسن الشاذلى " ^(٣) .

وأنبه أن مشايخ الصوفية كانوا يحرصون على التزام الأدب، وخاصة لمريديهم، وطلابهم، ولو كانوا فى حالة أنس بالله تعالى، ولذلك نقل عنهم : " فموجب الحفظ من الصوفى على إقامة رسم الطريقة، بترك ما يريب، ونفى ما يعيب، وإن كان مباحاً " ^(٤) .

وقيل أيضاً :

" النظر لصرف الحقيقة محل بوجه الطريقة، ومن ثم وقع القوم فى الطامات وتكلموا بالشطحات، حتى كفر من كفر، وفسق من فسق، بواضح الشريعة ولسان العلم، ظاهراً وباطناً .

(١) تابع قرّة العين : ج ٢ : ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٢) إيقاظ الحكم : ص ٣٦٩ .

(٣) قضية التصوف : الإمام أ . د / عبد الحلیم محمود : ط دار المعارف : ص ٥٨ .

(٤) قواعد التصوف : أحمد بن زوق : ط الكليات الأزهرية : ص ١٢٥ .

فيلزم التحفظ في القبول، بأن لا يؤخذ إلا عن الكتاب والسنة " (١).

حال الوجد والأمر بالذكر، والصلاة على رسول الله ﷺ :

أوجب العارفون بالله تعالى في استقامتهم: الأدب في الطريق، وخاصة في حال الوجد، والقرب من الله تعالى أن يثبتوا، ويكثرُوا من الذكر، والاستغفار وأن يصلوا على الرسول ﷺ، ففي الصلاة تثبت لهم، وأن يعلموا جلياً أنهم ليسوا بمعصومين، ومن ثم فإن مداخل الشيطان لهم أشد، فليتعوذوا بالله تعالى ويتحصنوا به، وليلتزموا شريعته؛ ولذلك قيل :

"نورانية الأذكار، محرقة لأوصاف العبد، ... وقد أمر بالصلاة على رسول الله ﷺ معها؛ لأنها كالماء تقوى النفوس، وتذهب وهج الطباع ولهذا أمر المشايخ بالصلاة على رسول الله ﷺ، عند غلبة الوجد، والذوق لذلك شاهد" (٢).

وعلى ذلك قال الإمام ابن عطاء الله السكندري :

"معنى جعلك في الظاهر ممثلاً لأمره، وفي الباطن مستسلماً لقهره، فقد أعظم المنة عليك" (٣).

فإنه في الظاهر قد امتثل بكمال الشريعة، وتحقق بأفعال العبودية، وفي الباطن قد استسلم لقهره، وإرادته؛ لذلك فقد دلّ حاله على كمال الطريقة ونهاية الحقيقة، والجمع بينهما هو غاية الكمال، إذ منتهى الكمالات : فقد عظم المنة عليك، حيث أراح ظاهرك من عنت المخالفة، وأراح باطنك من تعب المنازعة" (٤).

وعلى ذلك فالذين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه، بالكرامات يزدادوا إيماناً، وقرباً من الله تعالى، ويقيناً به سبحانه؛ فقد عرفوا الله تعالى، ولا يريدوا سواه

(١) إيقاظ الهمم : ص ٢٠٣ .

(٢) قواعد التصوف : ص ٦٩ .

(٣) إيقاظ الهمم : ص ٢٠٦ .

(٤) المرجع : ص ٢٠٦ .

كذلك فإنهم قد علموا من الله تعالى أن الكرامة على الأكثر، لا تدل على كمال العبودية لله تعالى؛ لذلك قال ابن عطاء الله السكندري: "ليس كل من ثبت تخصيصه كمال تخليصه"^(١).

يعنى أنه قد يخصص بالكرامات الحسية، من لم يتخلص من حظوظه النفسية وأهواءه.

ومن ثم فمن الحكم من ظهورها.

أحدهما: إنهاضه فى العمل، على حسب ما يقتضيه الوقت، والحال .

الثانى: اختبار له، هل يقف معها؟ فيحجب، أو يأنف عنها؟ فيقرب .

الثالث: زيادة فى يقينه، أو يقين الغير فيه؛ لينتفع به، فهى مقصودة بالتكميل، على كل حال .

والغاية العليا، والمنة الكبرى هى: الامتثال بكمال الشريعة، وتحقيق العبودية، دون إفراط أو تفريط، والاستلام من القلب لقهره، وإرادته سبحانه وتعالى، هذا هو كمال الاعتدال والوسطية، فى علم الشريعة والحقيقة معاً.

درجات المستقيم، ووصف حاله:

قبل أن أعرض درجات المستقيم، لابد من الإشارة: أن الواقع المرير، والمحزن فى هذا العصر أحوال الكثير من دعاة العلم بالدين، والحق فيه: يتكلمون، ولا يعلمون، المهم فى حياتهم حب الثناء، والتعظيم لهم، وظهورهم بين الناس وللأسف هذا يشمل الكثير من المشايخ، ومن اعتلى ذلك شهادة علمية. فقلوبهم فى شتات عن أقوالهم، وظاهر أعمالهم. ولذلك نرى كثيراً منهم يكثرون المراء فى الدين، والجدال، بدعوتهم أنهم يفسرون القرآن الكريم، وهم يضربون آيات الله تعالى، بعضها ببعض.

(١) المرجع السابق: ٢٠٧ .

وأشير أن كثرة القنوات الإعلامية ساعدتهم على ذلك، بل قد تعتمد إثارة الشبه، والنقاش الحاد، برفع الصوت بين الرأى، والرأى الآخر وكلهم غايتهم غير دعوة الحق البين.

ولذلك، وللأسف الشديد شتتوا الناس، وضيعوا الحق بينهم، وانقسموا بسببهم بين افراط، وتفريط.

ومن ثم أرى أن القدوة الحسنة اختفت بينهم؛ لذلك انتشر الجهل بين الناس لوسطية الإسلام واعتداله.

فالاستقامة عمل قبل أن تكون وظيفة للكلام، وأعرض من أوصاف المستقيم التالى:

أولاً: الإخبات وقوة الإرادة والعزم:

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١).

فالخبت فى أصل اللغة: المك - المنخفض من الأرض، وبه فسر ابن عباس رضى الله عنهما لفظ "المخبتين" وقالوا: هم المتواضعون.

ومن أهمية "الإخبات" فى سلوك المؤمن، كان رأى أكثر الصوفية أنه: أول مقامات الطمأنينة: كالسكينة، واليقين، والثقة بالله تعالى، ونحوها.

فالإخبات مقدمتها، ومبدؤها، حيث إنه أول مقام يتخلص فيه السالك من التردد، الذى هو عندهم من الغفلة، والإعراض.

ولذلك قالوا أنه درجات:

الأولى: دخوله مقام الطمأنينة، ونزوله أول منازلها، وخلاصه فى هذا المنزل من

تردد الخواطر بين الاقبال والإدبار، والرجوع والعزم إلى الاستقامة، والعزم الجازم، والجد في السير، وذلك علامة السكينة.

كذلك في هذا المنزل تستدرك إرادته غفلته، والمريد: هو الذى خرج من وطن طبعه ونفسه، وأخذ في السفر إلى الله تعالى والدار الآخرة، فإذا نزل في منزل الإخبات أحاطت إرادته بغفلته، فاستدركها.

الثانية: أن لا ينقص إرادته سبب، ولا يوحش قلبه أرض، ولا يقطع عليه الطريق فتنة، فإذا تمكن من منزل "الإخبات" اندفعت عنه هذه الآفات، لأن إرادته إذا قويت، وجدَّ به السير: لم ينقصها سبب من أسباب التخلف.

الجدير بالذكر أن منزل "الإخبات" يُقوى إرادة المريد؛ ومن ثم يقصد الفتنة هنا: الواردات التي ترد على القلوب، الإنشغال بغير الحق.

وكل ذلك لا يتم إلا من العلم الصحيح؛ فقد رأوا أنها عزائم، لا تصح إلا لمن أشرق على قلبه آثار الأسماء والصفات، وتجلت عليه معانيها، وكافح قلبه حقيقة اليقين بها.

وقد قيل: من أخذ العلم من عين العلم ثبت، ومن أخذه من جريانه أخذه أمواج الشبه، ومالت به العبارات، واختلفت عليه الأقوال.

الدرجة الثالثة:

أن يستوى عنده المدح والذم فهو دائم اللوم لنفسه، كذلك يعنى عن نقصان الخلق عن درجته، فإنه متى استقرت قدم العبد في منزلة "الإخبات" وتمكن فيها ارتفعت همته، وعلت نفسه من خطفات المدح والذم، فلا يفرح بمدح الناس، ولا يحزن لذمهم، فقد تأهل للفناء في عبودية ربه، وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه^(١).

(١) تابع مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية: ج ٢: ص (بتصرف).

ومن ثم إذن أن الوقوف عند مدح الناس، وذمهم: علامة انقطاع القلب وخلوه من الله، وأنه لم تباشره روح محبته، ومعرفته، ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه.

فهو سائر في طريق الله تعالى، أخذ علمه من الأسس الصحيحة له، ولا يريد إلا الله تعالى، ومن ثم بمنزلته من الإخبات استقام على طريق الحق، فلا سبيل له البتة للإفراط، والتفريط.

ثانياً: السكينة والوقار

أصل السكينة "الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات^(١).

قال الله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(٢).

ومن ثم نجد من السكينة التي تنطق على لسان المحدثين، ليست هي شيئاً يملك، إنما هي شيء من لطائف صنع الحق، ينطق بها لسان محدث الحكمة.

وهي أيضاً ينزلها الله تعالى على قلب سالك الاستقامة، فيطمأن بها، فتسكن جوارحه، وتخضع، وتكتسب الوقار، فلا ينطق إلا بالحكمة والصواب، كذلك تحفظه عن كل باطل من إفراط، وتفريط.

الجدير بالذكر أن صاحب السكينة لأنه بالله تعالى، لا يتكلم إلا بالحق وبكلام لم يكن عن فكرة منه، ولا روية، ويستغربه هو من نفسه، كما يستغرب السامع له، وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه.

(١) مدارج السالكين: ج ٢: ٥٢٥ (بتصرف).

(٢) الفتح: ٥٦.

وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة، وصدق الرغبة من السائل، والمجالس وصدق الرغبة منه: هو إلى الله تعالى، والإسراع بقلبه إلى بين يديه، وحضرته، مع تجرده من الأهواء، وتجريده النصيحة لله ولرسوله ﷺ ولعباده المؤمنين .

ومن أعظم مقامات السكينة هي التي نزلت على قلب النبي ﷺ، وقلوب المؤمنين، فقد وصفت أنها شملت على ثلاثة معان:

النور، القوة، الروح .

وذكرت لها ثلاث ثمرات: سكون الخائف إليه، وتُسلى الحزين، والضحربه، واستكانة صاحب المعصية عن المعصية .

فالنور: يكشف له عن دلائل الإيمان، وحقائق اليقين، ويميز له بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغى والرشد، والشك واليقين .

والحياة: توجب كما يقظته وفطنته، حضوره، وانتباهه من سنة الغفلة وتأهبه للقاءه .

والقوة: توجب له الصدق، وصحة المعرفة، وقهر داعي الغي، والعنت وضبط النفس عن جزعها وهلعها، واسترسالها في النقائص والعيوب؛ ولذلك ازداد بالسكينة إيماناً مع إيمانه .

والإيمان يشمر له النور، والحياة، والقوة، وهذه الثلاثة تثمره أيضاً، وتوجب زيادته، فهو محفوظ بها قبلها، وبعدها .

فبالنور: يكشف دلائل الإيمان .

وبالحياة: ينتبه من سنة الغفلة، ويصبر وهو يقظ من الالتفات لنفسه، إلا بالحق .

وبالقوة: يقهر الهوى والنفس، والشيطان .

فإذا حصلت هذه الثلاثة بالسكينة: وهو النور، والحياة، والروح سكن إليها

العصبي، وهو الذى سكونه إلى المعصية، والمخالفة، لعدم سكونه الإيمان فى قلبه، صار سكونه إليها عوض عن سكونه إلى الشهوات، والمخالفات، فإنه قد وجد فيها مطلوبه، وهو اللذة التى كان يطلبها من المعصية .

فاستراحت بها نفسه، وهاج إليها قلبه، ووجد فيها من الروح، والراحة واللذة مالا نسبة بينه، وبين اللذة الجسمانية النفسانية، فصارت لذته روحانية قلبية .

ومن ثم فإن بهذه السكونية يسكن الخوف، ويذهب الحزن، كذلك الهموم .
كما أنها تبعث نشوة العزم، وتحليل بين الجرأة على مخالفة الأمر، وبين إباء النفس، والإنقياد إليه .

وعلى ذلك قالوا أنها درجات :

الدرجة الأولى : سكونة الخشوع عند القيام للخدمة، الذى يحصل لصاحب مقام الإحسان .

فلما كان الإيمان موجباً للخشوع، وداعياً إليه، قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (١) .

دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكره الذى أنزله إليهم ؟

والخشوع فى الخدمة هو رعاية حقوقها الظاهرة، والباطنة، وتعظيم الخدمة وإجلالها، وذلك لتعظيم المعبود وإجلاله، ووقاره .

كذلك والحضور، وهو إحضار القلب فيها مشاهدة المعبود، كأنه يراه .

الدرجة الثانية : السكونة عند المعاملة بمحاسبة النفوس، وملاطفة الخلق ومراقبة

الحق (٢) .

(١) الحديد : ١٦ .

(٢) المرجع : ج ٢ : ٥٣٢ (بتصرف) .

هذه الدرجة هي أساس السلوك عند الصوفية، والعلم الذى يشمرون إليه للمعاملة التى بينهم، وبين الله تعالى، وبينهم، وبين خلقه .
ومحاسبة النفس، حتى تعرف ما لها، وما عليها، وهذا يجعلها على حذر دائم فى الاستقامة .

وملاطفة الخلق وألا يعاملهم بالعنف، والشدة، والغلظة؛ فإن ذلك ينفرهم عنه ويفسد عليه قلبه، وحاله مع الله تعالى ووقته، فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف .

فإن معاملة الناس بذلك : إما أجنبى، فتكسب مودته، ومحبته .

وإما صاحب، وحبيب فتستديم صحبته ومودته .

وإما عدو ومبغض، فتطفئ بلطفك جمرته، وتستكفى شره .

ويكون احتمالك لمضض لطفك به، دون احتمالك لضرر، ما ينالك من الغلظة عليه، والعنف به^(١) .

ومراقبة الحق سبحانه، وهى الموجبة لكل صلاح، وخير عاجل، وآجل ولا تصح محاسبة النفس، ولا ملاطفة الخلق، إلا إذا كان قيام السالك الصوفى بنسيان نفسه مع الله تعالى، والتبرى عما سواه .

الدرجة الثالثة : السكينة التى تثبت الرضى بالمقسوم، وتمنع من الشطح الفاحش، فإن السكينة إذا استقرت فى القلب منعته من الشطح، وأسبابه حيث توجب لصاحبها الوقوف عند حده من رتبة العبودية، فلا يتعدى مرتبة العبودية وحدها .

ومن ثم رأى الإمام الغزالي علامة المنزل الأول من منازل السائرين إلى الله تعالى :

(١) المرجع : ج ٢ : ٥٣٢ (بتصرف) .

فقد بدأ كلامه أن سالك سبيل الله تعالى قليل، والمدعى فيه كثير، نحن نعرفك علامتين، تجعلهما أمام عينيك، وتعتبر بها نفسك وغيرك:

فالعلامة الأولى: أن تكون جميع أفعاله الاختيارية، موزونة بميزان الشرع موقوفة على حد توقيفاته، إيراداً، وإصداراً، وإقداماً وإحجاماً؛ إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل، إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها، ولا يمكن ذلك إلا بعد تهذيب الأخلاق^(١).

ومن ثم قال:

"فاعلم أن المحققين قالوا: (لو رأيت إنساناً يمشى على الماء، وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع، فاعلم أنه شيطان)، وهو الحق؛ وذلك أن الشريعة حنيفية سمحة، فمنها مستحاجة، أو حصلت ضرورة، كان للشرع فيها رخصة، فمن جاوز محل الرخصة، فلا يكون عن ضرورة، بل عن هوى وشهوة.

والإنسان ما دام في هذا العالم لا يأمن إستيلاء الشهوة، وعودها إلى القهر بهد الإنقهار، فينبغي أن يأخذ منها حذره.

فلا يتصور أن يدعو إلى مخالفة الشرع، إلا طلب رفاهية، ودعة، أو نوع شهوة، أو نوع كسل"^(٢).

العلامة الثانية:

أن يكون حاضر القلب مع الله تعالى، في كل حال حضوراً ضرورياً، غير متكلف، بل حضوراً يعظم تلذذه، وأن يكون الحضور انكسار، وضراعة وخضوعاً لما انكشف عنده من جلال الله وبهائه، ولا يفارق ذلك في أطواره وأحواله، وإن اشتغل بضروريات بدنه، فالقلب حاضر عنده مع الله تعالى، مع نهاية الإجلال،

(١) ميزان العمل: ص ٣٣٩.

(٢) المرجع: ص ٤٠١.

والتواضع. وعلى الجملة: فلا يعم سلوك هذا الطريق، إلا بحرص شديد، وإرادة تامة، وطلب بليغ^(١).

ثالثاً: الإطمئنان والرضا:

إن النفس المطمئنة هي المستقيمة، التي رضيت، واطمأنت بحب الله تعالى وطاعته، وإن مقامها هذا هو في مفهوم الصوفية هو مقام لعبودية .

"فالطمأنينة" سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢)، الجدير بالذكر أن اطمئنان القلوب ينطبع على الجوارح؛ ومن ثم على الأفعال والأعمال؛ كذلك فإن أفعال السالك لطريق الاستقامة، كلها من القلب إلى القلب في اطمئنان، وأمن سلام .

ومن ثم قيل في تعريف الطمأنينة:

سكون يقويه أمن صحيح؛ ومن ثم بينها، وبين مقام السكينة فرقان (كما سبق الإشارة إليه):

أحدهما: أن السكينة " صولة تورث عمود الهيبة أحياناً، " والطمأنينة " مكنون امن في استراحة أنس .

الثاني: أن "السكينة" تكون نعتاً، وتكون حيناً بعد حين .

"الطمأنينة" لا تفارق صاحبها، فهي مأخوذة من الإقامة .

"الطمأنينة" موجب السكينة، وأثر من آثارها. وكأنها نهاية السكينة .

ولذلك فهي سكون القلب مع قوة الأمن الصحيح، الذي لا يكون أمن غرور،

فقد يسكن القلب إلى أمن الغرور، ولكن لا يطمئن به؛ لمفارقة ذلك السكون له .

(١) المرجع: ص ٤٠٢ .

(٢) الرعد: ٢٨ .

وإن الاستراحة في "السكينة" قد تكون من الخوف، والهيبة فقط .
والاستراحة في منزل "الطمأنينة" تكون مع زيادة أنس، وذلك فوق مجرد الأمن، وقدر زائد عليه .

ومن ثم "الطمأنينة" ملكه، ومقام لا يفارق، ولذلك فالطمأنينة تستلزم السكينة، ولا تفارقها، وكذلك بالعكس، ولكن استلزام الطمأنينة للسكينة، أقوى من استلزام السكينة للطمأنينة .

من درجات الطمأنينة :

الدرجة الأولى :

طمأنينة القلب بذكر الله تعالى، وهي طمأنينة الخائف إلى الرجاء، والضجر إلى الحكم، والمبتلى إلى المثوبة .

فإن الخائف إذا طال عليه الخوف، واشتد به، وأراد الله عز وجل أن يريحه ويحمل عنه : انزل عليه السكينة، فاستراح قلبه إلى الرجاء، واطمأن به .

والمراد بطمأنينة الضجر إلى الحكم : هو من أدركه الضجر من قوة التكليف وأعباء الأمر، وأثقاله، ولاسيما من أقيم مقام التبليغ عن الله تعالى، ومجاهدة أعداء الله فإن ما يحمله، ويتحمله فوق ما يحمله الناس، ويتحملونه فسكينة الله تعالى له؛ لكي يطمأن إلى حكمه الديني والقدرى، ولا طمأنينة له بدون مشاهدة الحكمين، وبحسب مشاهدته لهما تكون طمأنينته، والحكم الديني هو الحق، وهو الصراط المستقيم، والله سبحانه تعالى هو ناصره، ووليه، وكافيه .

وإذا اطمأن إلى حكمه الكوني : علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله تعالى له وأنه ما يشاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا وجه للجزع، والقلق إلا ضعف اليقين

والإيمان، لكن إن كان له في هذه النازلة حيلة، فلا ينبغي أن يضجر عنها، وإن لم يكن فيها حيلة، فلا ينبغي أن يضجر منها، فهذه طمأنينة الضجر إلى الحكم .
كذلك طمأنينة المبتلى إلى المثوبة، ومن ثم يري في البلاء نعمة من الله تعالى .
الدرجة الثانية: طمأنينة الروح في الكشف من حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، وكشف المطلوب المقصود بالسر، وهو معرفة الأسماء والصفات والتوحيد الخالص من الشوب؛ وكل الشرك الخفى .

وهذا طريق العارفين بالله تعالى، ففيه أحوال .

ومن علامة دخول المستقيم هذا المقام العظيم:

أنه يلتذ بكلامه الناس، قيل ولو تكلم طول الدهر لا يُملُ كلامه، وذلك لأنه لا يتكلم إلا بالله تعالى، ومن الله تعالى، وإلى الله تعالى .
ويترجم لسانه عن خواطر، وحقائق ربانية؛ ومن ثم فلا يتكلم كلمة إلا وهي مطابقة لشرع الله تعالى^(١).

ولذلك فهذه النفس سوية، ومتوازنة، وحكيمة، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا المقام العظيم، في ثلاث وعشرين موضعاً، مبيناً أنه مقام رسوخ، وثبات، تنشرح له القلوب، وتسعد له النفوس، كما أن صمته عبرة، وكلامه ذكرى، تسكن له النفوس القلقة .

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾^(٢).

وعلى ذلك فالنفس المطمئنة المستقيمة تحب لقاء الله تعالى، وتشتاق إليه جعلنا الله تعالى منهم .

(١) اليسر والسلوك إلى مالك الملوك: ص ١١٨ (بتصرف) .

(٢) الفجر: ٢٧ .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

لقد تحدثت عن الاستقامة ومفهوم الصوفية لها، على قدر المتاح لى، فى هذا البحث، فإن هذا الموضوع يعنى الدين كله، فى مفهومه الصحيح .

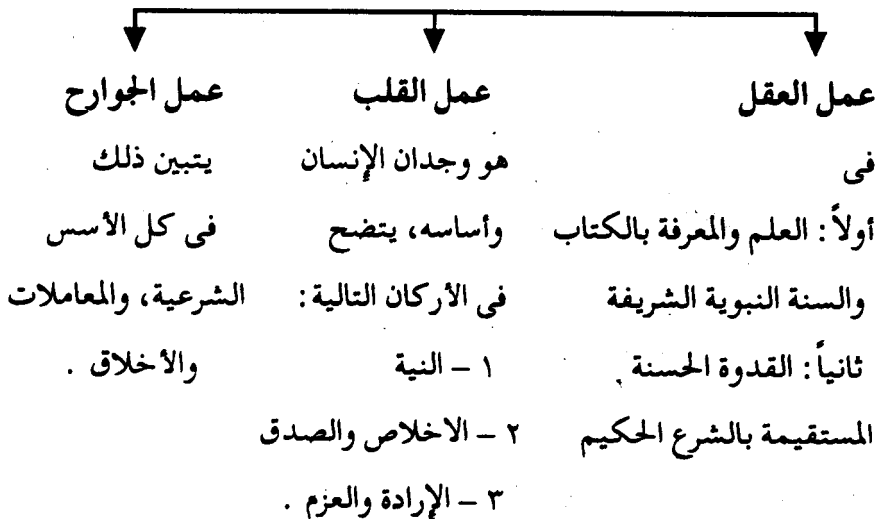
وقد تبين أن الصوفية: هم الذين دخلوا فى أغوار النفس البشرية، فقد شرح آمتهم بواقع عملي، حقيقة العمل بالشرعة الإسلامية، وفهموا أسباب الجنوح والضلال، فى الإفراط والتفريط، وكيف يعرف السالك ذلك، ويحاسب نفسه بجهادها، والصبر عليها .

والرسم التالي يوضح ما ينبغى على المريد لها عمله، والتنبه له :

عمل الإنسان فى

الاستقامة بنور الشريعة الإسلامية

يتضمن



ومن هذا الرسم يتبين أن أساس استقامة المسلم، من قلبه؛ ومن ثم فلا رخص للإنسان له، فالنية يجب أن تكون واحدة، وإن الأعمال بها .

ولذلك يجب معرفة المسلم للأمراض الخفية في قلبه (كما سبق) حتى يتنبه ويمكن له تطهير نفسه، وأفعالها من تلك الأمراض .

كذلك فإن العقل نعمة من الله تعالى، أكرم الله تعالى الإنسان به، فيجب أن يستعمله في محله، دون إفراط، أو تفريط .

وأشير أن الإنسان العاصي، هو في الحقيقة غير عاقل أو ناقص العقل ، لأنه لم يستعمل نعمة العقل في محلها، قال الله تعالى: ﴿ صُمُّ بَكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١).

ومن ثم فحياته في خلل دائم، كما هو في عدم اتزان، وعدم توحيد، أو هو مقسم إلى أشلاء؛ ذلك لأنه لم يعيش الحياة السليمة الصحيحة، لنفسه، وعقله وقلبه (كما سبق).

وعلى ذلك فالاستقامة: عقيدة، وشرعة، وأخلاق تعمل على توحيد الإنسان، وسلامة حياته، فهو في أمن وسكينة، وطمأنينة، فالمؤمن ليس لديه قط مشكلة .

والحمد لله رب العالمين اللهم اهدنا الصراط المستقيم واعف عنا، واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن ولاه .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- صحيح الإمام البخارى : طبعة دار الشعب .
- صحيح الإمام مسلم : طبعة عيسى الحلبي .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني : دار صادر (بيروت) .
- شرح النووي على مسلم .
- الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وآى الفرقان (تفسير القرطبي) - الإمام عبد الله بن محمد بن أحمد القرطبي - المعارف .
- روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم، والسبع المثاني - للإمام أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى - المعارف .
- الرسالة القشيرية - الإمام القشيري (الإمام عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك) المتوفى سنة ٤٦٥ هـ - الحلبي .
- إحياء علوم الدين - الإمام أبو حامد الغزالي - دار الحديث .
- مدارج السالكين بين منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) : ابن قيم الجوزية (الإمام أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب) - دار الحديث (١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م) .
- المعجم الوجيز : طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم (٢٠٠٢) .
- التعريفات : الإمام الجرجاني (السيد الشريف على بن محمد (١٩٢٨ م) . أبى الحسن الحسينى الجرجانى الحنفى) الحلبي (١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م) .
- الطبقات الكبرى : الإمام عبد الوهاب الشعراني - المكتبة التوفيقية (القاهرة) .
- المفاخر العلية : ابن عياد (الشيخ أحمد بن محمد بن عياد الشافعى - (صبيح) و) الطباعة المحمدية سنة (١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م) .

- المعرفة عند الحكيم الترمذى - د / عبد المحسن الحسينى - دار الكتاب العربى .
- القصد والرجوع إلى الله - الإمام عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى - دار الكتب العلمية (بيروت - لبنان) - الطبعة الأولى (سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م) .
- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح: الإمام ابن عطاء الله السكندرى - (الجلي) .
- تبويب الحكم العطائية - العارف بالله على بن حسام الدين - الحلبي .
- إيقاظ الهمم فى شرح الحكم - أحمد بن عجيبة الحسينى - السعادة .
- معراج التشوف إلى حقائق التصوف لأحمد بن عجيبة الحسينى - الاعتدال (سوريا) الأولى (١٣٥٥ هـ - ١٩٣٧ م) .
- الاستقامة: (أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية - دار الحديث .
- درة الأسرار: السيد الحميرى المعروف بابن الصباغ: دارسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا - السعادة سنة (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) .
- قواعد التصوف - الإمام أحمد بن زروق: تصحيح وتعليق محمد زهرى النجار - الكليات الأزهرية - الطبعة الثالثة سنة (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م) .
- قوانين حكم الإشراق إلى كافة الصوفية بجميع الأفاق: الإمام المحقق جمال الدين أبو المواهب الشاذلى: الكليات الأزهرية (منقولة عن النسخة المطبوعة فى سوريا سنة (١٣٨٠ هـ) .
- ميزان العمل: الإمام أبو حامد الغزالى - تحقيق: د. سليمان دنيا - دار المعارف (الطبعة الثانية) .
- لسان العرب - ابن منظور - المعارف .
- التصوف فى تراث ابن تيمية - الطبلاوى محمود سعد - الهيئة العامة للكتاب .
- الفلسفة الخلقية - أ. د / توفيق الطويل - الهيئة العامة للكتاب .

- سيكولوجية الضمير: د / محمد كامل النحاس - النهضة .
- الوجدان د / عادل العوا - الهيئة العامة للكتاب .
- المشكلة الخلقية من منظور فلسفى - ادوارد كاتنور - ط دار الجيل .
- تأملات فى الأخلاق النظرية - أ . د / محمد حسيني موسى محمد الغزالى - طبعة الزقازيق (الشرقية - مصر) .
- نحو منهج إسلامى - أ . د / حسن الشرقاوى - طبعة السفير (الأسكندرية) .
- مختصر منهاج القاصدين - الإمام الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسى - إحياء الكتب الإسلامية (بيروت) .
- السير والسلوك إلى مالك الملوك - الشيخ قاسم بن صلاح الدين الحلبى - دار مكة المكرمة (الجيزة مصر) .
- منازل السائرين إلى الحق عز شأنه - الهروى الأنصارى أبو إسماعيل عبد الله بن محمد (المتوفى سنة (٤٨١ هـ) - البابى الحلبى .
- لطائف الإشارات - الإمام القشبرى - تقديم وتحقيق، وتعليق - د / إبراهيم بسيونى - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- روضة الطالبين: الإمام أبو حامد الغزالى: الجندى .
- مباحث فى فلسفة الأخلاق - د / محمد يوسف موسى - ط السلفية .
- لطائف المنز - الإمام ابن عطاء الله السكندرى - (الشعب) سنة (١٩٨٦ م) .
- غيث المواهب فى شرح الحكم العطائية - أبو عبد الله محمد إبراهيم بن عباد النفرى - السعادة .
- قرة العين فى شرح الحكم العطائية - أحمد بن زروق - دار التراث العربى (بيروت - صيدا) .

- قضية التصوف (المدرسة الشاذلية) - الإمام الدكتور عبد الحلیم محمود - دار المعارف .
- روضة التعريف بالحب الشريف : الوزير لسان الدين بن الخطيب - تحقيق وتعليق عبد القادر أحمد عطا عبد الستار - دار الفكر العربی .
- تقريب الأصول لتسهيل الوصول لمعرفة الله والرسول - الشيخ أحمد بن السيد زینی دحلان - البابي الحلبي .
- تفسير الفخر الرازي الإمام محمد الرازي فخر الدين بن العلامة ضياء الدين عمر - دار الفكر (بيروت لبنان) الأولى (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م)
- الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية - أحمد بن محمد بن عجيبة الحسيني - تحقيق : عبد الرحمن حسن محمود - عالم الفكر .
- مدارج السالكين : ابن القيم الجوزية : دار الحديث .

* * *